الإمامة واللّبــاس

قصة افتراضية للتعرف على أمر الأئمة عليهم السلام وإنعاشه في النفوس...

محمد علي باقري

الإمامة واللّبــاس

قصة افتراضية للتعرف على أمر الأئمة عليهم السلام وإنعاشه في
النفوس...

محمد علي باقري

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ مـ

للتواصل:

E-mail: muddakerat@gmail.com

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمـد للّـه رب العالمين. والصـلاة والسـلام على محمد وآله الطيبيـن الطاهرين

هـذه محاولـة لمعرفة الإمامـة وتوليّهـا باعتبارهـا المرجع لجميـع مـا يمارسـه المؤمن فـي حياتـه الفعلية مـن الفكر، بل والسـلوك وإن كان مخالفـا في ظاهـره للإمامة القائمـة الهادية، مـا دام عارفـا بهـا ثم عامـلا بالتقية وهـو عالم بمعناها الواسـع الـذي به كانـت دينَ المسـتضعَفين مـن الأئمة عليهم السـلام، وفـي الكافـي (١/ ٤٠) عن أبـي عبد اللّـه عليه السـلام، قال: لا يسـع الناس حتى يسـألوا ويتفقهوا ويعرفوا إمامهم، ويسـعهم أن يأخـذوا بما يقـول وإن كان تقيّة

وإني وإن كنت جازما بسـلامة مسار هذه المحاولة ومطابقته لموازيـن الإمامـة، غيـر أنـي لا أتعهد بسـلامة جميـع الأقوال والآراء المذكـورة فيهـا، وبما أني حاولت تيسـيرها للفهم العام، فالمتوقـع إذَن أن يتمكـن القـارئ مـن التمييـز بين خطـأ القول وصوابه، والمفـروض أنه ممن يبحث عن المعرفة فيتعقل الأمور ويمحصها...

وهنـاك مـن الأقوال مـا قد لا أرتضيه أساسـا، وإنمـا ذكرته لمجرد تنشـيط الذهـن وحثّه علـى التفكير والبحـث، وأظن أن ذلـك لا يخفـى على من قـرأ الموضـوع بتدبّر...

ولا أظن يخفى على أحد أن القصة افتراضية...

محمد علي باقري

السبت ٥ صفر ١٤١٧

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

(ثابت):ـ لا أدري كيف أفعل؟ ... قل باللّٰه عليك...

(طالب):ـ بشأن ماذا؟

(ثابت):ـ بشأن الحج... ، بشأن الحج... ، إني قلق جدّا...

(طالب):ـ ماذا بك؟ اهدَأ. أخبرني...

(ثابت):ـ هذا أخي همّام يريد الحج مع زوجته في نفس الحملة التي أنا أريد الحج فيها مع زوجتي...

(طالب):ـ ماذا في الأمر؟ وضّحه لي، إني لم أفهم بعدُ المشكلة التي تتألم منها

(ثابت):ـ المشكلة هي أني كنت عازما على أن آتي بالحج هذا العام بالصورة الشرعية الصحيحة مئة بالمئة، وكان ذلك يتطلب مني كل جهدي وطاقتي، مع راحة البال والبعد عن كل ما هو مقلق، خصوصا وأن زوجتي هي الأخرى تنوي أن يخلو حجها هذا العام من الشوائب، فهي في ذلك بحاجة إلى مساعدتي، وها هو أخي وزوجته سيستوليان على قسط كبير من جهدي ويسببان لنا كثيرا من القلق والإرهاق، فلا نستطيع إذَن أن نؤدّي الحج حسبما نوينا. وكلما حاولت إثناءه لم أنجح، وصراحة، إني أخاف أيضا،

كما قرأت في وسائل الشيعة (٨/ ٩٨)، أن يصيبني شيء إن منعته عن الحج، ولذا لم أتصدّ له بصورة مباشرة، وإنما حاولت معه بطرق أخرى، ولكني مع الأسف فشلت ـ كما ذكرتُ ـ !

(طالب):ـ ما هي المشكلة بالضبط؟

(ثابت):ـ إنك تعلم أن الالتزام التام بمسائل الحج صعب جدًّا، بل لا أظنه ممكنا لكثير من الناس خصوصا النساء، دعنا عن الطواف والدقة المطلوبة فيه وكذلك الصلاة خلف المقام، فإن عملية الجمع بين كشف الوجه وستره في آن واحد وحدها تستقطب ـ عادة ـ كل جهد المرأة في الحج...

أجل، إني كنت قد خططت هذه السنة للإتيان بحج صحيح مئة بالمئة لأعوض به حجاتي السابقة التي أشك في صحتها رغم كل ما كنت أصرفه من الجهد وأتحمل من التعب حيث كنت أدقق كثيرا وأكرر الطواف وصلاته مرارا، وكان الاهتمام بمسائل الحج ومشاكله شغلي الشاغل في موسم الحج، بل منذ مدة قبل السفر للحج...

آه ويلي! أنا عاجز عن حج نفسي، فصرت مسؤولا عن زوجتي ومشاكلها النسوية، فلم يكف ذلك بلاء حتى ابتليتُ بأخي وزوجته! قل لي: ماذا أفعل؟

(طالب):ـ هل هذه هي الحجة الأولى لأخيك؟ ثم ومن الطبيعي أنه ليس أمّيًّا، أليس كذلك؟ ...

(ثابت):ـ لا، إنها حجته الثانية، وهو بعد متعلم ويعرف المسائل الشرعية جيدا، أو أنه ـ في الحقيقة ـ يدعي ذلك، ويا ليته كان أمّيًّا...

(طالب):ـ فما هي المشكلة إذَن مادام هو يستطيع أن يدبر أمره؟ دعه وشأنه في الحج واهتمّ بنفسك وبزوجتك

(ثابت):ـ هو أيضا يقول: إنه وزوجته لا يشكلان ثقلا علينا فإنهما يعرفان الحج وكيفيته، ولكني لا أطمئن بكلامه، فإن تصرفاته تدل على الجهل واللامبالاة بأعمال الحج، فمثلا إنه يريد أن تحرم زوجته بملابسها العادية على خلاف الناس كلهم... ، تصور كم هذا التصرف غريب؟!

(طالب):ـ فعلا إن ذلك تصرف غريب... ، ولكن لِمَ يفعل ذلك؟ ألم تسأله لتناقشه؟ ...

(ثابت):ـ لا يستطيع أحد أن يغير رأيه، إنه معروف بالتصلب والعناد

(طالب):ـ ولكن بماذا يبرر موقفه هذا؟ ألم يقل شيئا بهذا الصدد؟ إني أود أن تنقل لي ما تتذكر من كلامه

(ثابت):ـ إنه يتكلم ـ كعـادته ـ بما لا يُقنع عاقلا، فكلامه لا يستحق الاهتمام والنقل، فمن كلامه ـ مثلا ـ أن تَقَيُّد الحاج بثيـاب معينة مما يضر بحجه! ...

(طالب):ـ إذَن بـماذا يفسّر تشريع ثوبي الإحرام للرجال؟ ألم يسأله أحد عن هذا؟ ...

(ثابت):ـ بلى...

(طالب):ـ فماذا يقول؟

(ثابت):ـ إنه يسكت فلا يردّ على المستشكل إلا نادرا، كمـا فعـلَ قبل أيام حين استشكل عليه (الـ ..) حيث أخذ يردد بعض العبارات غير المفهومة

(طالب):ـ ماذا كان ردّ فعل (الـ ..) ؟

(ثابت):ـ مـاذا تتوقع أن يكون ردّ فعل امرئ بـمستوى (الـ ..) غير الاستهجان والازدراء؟

(طالب):ـ ماذا فعل أخوك حينئذ؟

(ثابت):ـ لـجأ إلى السـكوت كعـادته بعـد أن فضحنـا بكلامه اللا معقول

إني أشكرك على أي حال.. ولكنه لا يستحق الشفقة، فلا تهتم به

(طالب):ـ هل لك أن تجمع بيني وبينه في مجلس خاص؟

(ثابت):ـ قد جمعنا بينه وبين شخصيات كبيرة من أمثال (الـ ..) ولم يقصروا في نصيحته، ولكنه لم يقبل وظلّ مصرا على عناده كما كان، فهل أنت تقدر أن تجعله يتغير؟!

(طالب):ـ لا أقصد نصيحته وتغييره، وإنما أريد الاطلاع على وضعه الغريب الملفت للنظر...

(ثابت):ـ أتريد الاطلاع على جنونه، فقد كفانا ما يقوله الناس الذين اطلعوا على أمره...

(طالب):ـ أرجو أن تجمع بيني وبينه...

(ثابت):ـ لا بأس، ولعل اللّه شاء أن يهديه بك أنت، ولكنه لا ينفتح على أحد، باستثناء مجموعة قليلة من أصدقائه المقربين، خصوصا بعد ما جرى له مع (الـ ..) ، ومع ذلك فإني سأحاول إن شاء اللّه، وأخبرك... ، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ السلام عليكم

(همّام):ـ عليكم السلام ورحمة اللّه

(طالب):ـ إني أردتُ اللقـاء بك ـ أيهـا الأخ همّام ـ فهل

أعطـاك أخوك ثابت صورة عني، فإني أظن ذلك؟

(همّام):ـ لم يكن هناك مجال للتفصيل، غير أنه مدحك جدًّا وقال ـ فيما قال ـ : أنك امرؤ عظيم، وأنه يحبك جدا، فنصحني بقبول نصائحك

(طالب):ـ ماذا كان أثر كلامه عليك؟

(همّام):ـ وأنت ماذا تتوقع أن يكون الأثر؟

(طالب):ـ أظن أن كلامه جعـلك حــذرا مستنفرا تـجاهي، أليس كذلك؟

(همّام):ـ ... ، ماذا تقصد؟ هل لك أن توضّح أكثر؟

(طالب):ـ لِمَ تطـلب مني أن أوضح أنا مـا في نفسـك أنت؟ أليس الأفضل أن تتكلم أنت عما يدور في بالك؟

(همّام):ـ صحيح ذلك، ولكني أريد أن أتعرف عليك...

(طالب):ـ إني أعرف مقياس أخيك للإعجـاب، ومن المؤكـد أنك أيضـا تعرف ذلك الـمقياس، فأظن إذَن أن إعجـابه بشخص قد يجعـلك تشـك في صلاحه، خصوصا لو أنه طلب منك أن تقبل نصيحته، بدل أن يقترح عليك التباحث معه...

هل استطعت أن أوضح لك شيئا؟

(همّام):ـ أجل، ـ ويقوم فيفتح الباب فيدخل أخوه ثابت ـ

× × × × × × × × × ×

(ثابت) ـ بعـد السلام ـ : لا أظنكمـا تمانعان من جلوسي معكما، أليس كذلك؟ أتمنى أن يكون الحديث قد نفع وأصلح همّامًا بإذن اللّه

(طالب) ـ بعد أن ردّ السلام ـ : هل بإمكانك، يا همّام، أن تذكر لي السبب الـذي جعـلك تستحسن إحرام المرأة في ثيـابها الـمعتادة؟ فإني أحب التعرف على القاعدة التي تنطلق منها في هذا الاستحسان؟

(همّام):ـ ماذا تستهدف من التعرف على ما أنطلق منه؟

(ثابت):ـ عليـك أن تجيب على سؤال الأخ طالب وتخبره بـما في بالك، وما عليك من هدفه من السؤال؟! إنه ـ جزاه اللّه خيرا ـ يريد أن يستخرج ما في نفسك بهدف إصلاحك، وإلا كيف يتمكن من ذلك؟! فعليك أن تتعاون معه ولا تعاند...

(همّام):ـ أصحيح أيهـا الأخ طالب أنك إنـما تستهـدف إصلاحي كما قاله أخي ثابت؟

(ثابت):ـ نعم، نعم، وإلا لماذا يتعب نفسه معك؟ إني أعرف طالبًا فإنه ليس متفرغا... ، فكن عاقلا وتعاون معه...

(همّام):ـ إنك أيها الأخ طالب لم تجب على سؤالي بعدُ

(**طالب**):ـ أنا أستهدف إصلاح نفسي، لا إصلاحك، فأبحث في نفسك عما قد ينفعني...

(**ثابت**):ـ أحسنت أيهـا الأخ طالب... ، بدأت أفـهم... ، أجل، بدأت أفهم أن هذا هو الأسلوب الناجح مع همّام إن شاء اللّه... ، وإلا فإنه لا ينفتح عليك... ، الصراحة إن إيماني بدهائك قد زاد...

(**همّام**):ـ هل صحيح هذا الذي قاله ثابت؟

(**طالب**):ـ لا أدري كيف أتصرف بعد هذا الذي قاله ثابت فشوّش عليك أمري، ولا أظنني قادرا بالكلام على إزالة التشويش الذي أوجده ثابت في نفسك تجاهي، فلا أدري ماذا أفعل...

(**ثابت**):ـ آه، فـهمت، وإني آسـف من أني خربت خطتـك باستعجالي أيها العزيز طالب، إني آسف وأعاهدك أن أسكت ولا أتكلم

(**همّام**):ـ إني أتفـهم المشكلة، فلأني أظن أن ثابتًا لا يعرفك أحاول اعتبار كلامه لاغيًا في الحال الحاضر، فلنستمر...

(**ثابت**):ـ ما هذا؟! لو لم أكن أنا أعرف الأخ طالبًا الذي هو صديقي فمن يعرفه يا ترى، أأنت؟! ...

(**همّام**):ـ بداية دعني أحاول البحث عن رواية مذكورة في الكافي فأقرأها عليك

ها قد وجدتهـا في ج٤ ص ٢٨٠، وهي عن الصادق عليه السلام، قال: « **كان عليٌّ صلوات اللّه عليه لينقطع ركابه في طريق مكة فيشدّه بخوصة ليهوّن الحج على نفسه** »

(ثابت) ـ مقاطعا ـ : من قـال لك أن هـذه الرواية صحيحة؟! وهل أنت تفهم الروايات؟! ...

(طالب):ـ لا تستـعجل يا ثابت، فإننـا لا ندري إلى الآن مـاذا يريد همّام، ولماذا ذكرَ الرواية؟

(ثابت):ـ إني أعرف همّامًا وطريقته. إنه لم يذكر الرواية إلا ليستند إليها في تبرير موقفه، فقد ذكر نفس الرواية لـ (الـ ..) فلم يعطه المجال فبدأ يصب عليه من الأسئلة ما جعله يندم على غلطته... ، وإني كنت أعتقد أنه لا يجرؤ بعد ذلك اليوم على ذكر رواية أمام أحد، وقد تبين أنه نسي حالته تلك...

(طالب):ـ ألم تتعهـد بعـدم الـكلام؟ وعلى أي حال فمـاذا قال له بالضبط بشأن الرواية؟ اذكره ثم اسكت رجاء

(ثابت):ـ لا أذكر الـكلمات فإنهـا كانت صعبـة وفوق مسـتوى فـهمي، غير أنه قـد سخر من همّام وجعـله يفـهم حـدوده فلا يتحرش بالروايات... فسكت ولم يستطع أن يفتح فمه، وإني أنصحك بأن

تفعل معه نفس الشيء قدر ما تستطيع ذلك...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ أكمل ما كنت قد بدأته بنقل الرواية يا همّام...

(همّام):ـ كنت أريد أن أتساءل فأقول: ألا تؤشر هذه الرواية إلى باب مهم من أبواب التعامل مع الحج، بل الدين عامة، وهو أن كلما زاد اهتمام الحاج باللباس وغيره من الوسائل التي لابدّ له منها قَلَّ اهتمامه بأصل الحج وبالعكس، أي كلما زاد إقبال الحاج على الحج نفسه قَلَّ اهتمامه بالوسائل من اللباس وغيره. ألا ترى هذا صحيحا؟

(طالب):ـ إني أجد القاعدة في نفسي صحيحة على الإجمال، ولكن ما هي الحكمة ـ إذَن ـ من فرض الشريعة لباسا خاصا على الرجال في الحج؟ أليس هذا ما يهزّ تلك القاعدة وينافيها؟

(همّام):ـ إنك قد انطلقت في الحكم على سلامة القاعدة المذكورة من نفسك، فأسألك: هل تجد ذلك الحكم من محكمات نفسك أم من متشابهاتها؟

(طالب):ـ ما هذا؟! أتتوقع مني أن أفهم هذا السؤال الغريب وأجيب عليه؟! إنك إذَن مثالي جدّا، أليس كذلك؟

(ثابت):ـ ليس هذا الكلام الذي سمعته من همّام هو وحده الغريب، فسوف تجد بنفسك أن أكثر أقواله وتصرفاته غريبة لا يتقبلها العقل، بل تثير السخرية في النفوس...

(طالب):ـ إني لم أقصد من كلمة (الغريب) ما قد فهمته أنت... ، دعني أسمع ما يقوله همّام، دعني، رجاءً...

(همّام):ـ لم أتوقع أن يكون سؤالي مفهوما لك بالضبط فتستطيع الإجابة عليه...

(ثابت) ـ متدخلا ـ : هكذا! إنه بنفسه يعلم أن كلامه غير مفهوم فما هو ذنب الآخرين إذَنْ؟!

(طالب) ـ وهو يهمل تعليق ثابت ـ : فلو كنت تعلم ذلك يا همّام، فلِمَ سكتّ وبدأت تحدق في وجهي؟ أليس معنى ذلك أنك كنت تنتظر مني الإجابة على سؤالك؟ ...

(همّام):ـ كَلاّ، وإنما فعلت ذلك لأتبين تأثير تلك الكلمات الغريبة عليك فأقرر بذلك الاستمرار أو التوقف... ، أتجد هذه الكلمات هي الأخرى غريبة، أم ماذا؟

(طالب) ـ بعد شيء من التفكير ـ : أظن أني أعرف مغزى العبارة الأخيرة: إنك تعمّدت استعمال مصطلحات خاصة غامضة لترصد به كيفية تعاملي مع المفهوم الذي أردت طرحه عليَّ، فإن لاحظتَ

أن كلماتك قد أثارت في نفسي الاستغراب، أو لم تلحظ أي أثر خاص، لرأيتَ من الحقيق بك إذن أن تسكت...

وأما لو لاحظتَ أن تلك الكلمات أثارت في نفسي تساؤلا صادقا للبحث لرأيتَ إذن أن الكلام معي لا يضيع فتخطو حينئذ الخطوة الثانية، أليس كذلك؟

(همّام):ـ أجل، إنه كذلك، وقد لمحتُ فيك ملامح الرغبة الصادقة في البحث عن المعرفة مضافا إلى إمارات الذكاء، فها أنا أوضح لك السؤال الغريب فأقول:

إني أجد أن للنفس البشرية نظاما خاصا في تلقي الأفكار والمفاهيم والاعتقاد بها، فمن ذلك النظام المتشعب أن النفس لا تستطيع أن تتقبل إلا نمطا معينا من التصورات وهي القابلة للانصهار والتحول إلى صورة موحدة وفق خصائص النفس المركوزة فيها

فمن المعروف أن من خصائص النفس الرئيسية المركوزة فيها أنها لا تستطيع تقبل فكرتين متناقضتين، فكل فكرة تتلقاها النفس لابد وأن لا تناقض الصورة الموحدة المؤلَّفة من الأفكار الأخرى الموجودة فيها، بل يجب أن تعانق تلك الأفكار فتذوب في الصورة المكوَّنة منها... ، فلو لم تكن الفكرة الجديدة ملائمة للأفكار القائمة في النفس بشكل مترابط متشابك كعقيدة موحدة، حاولت النفس

أن توفق بينهما وتجعلهما متناسقتين، وذلك بالتصرف في الفكرة الجديدة لتصبح قابلة للذوبان في الصورة العقائدية القائمة، وإن لم تتمكن من التوفيق رفضت الفكرة الجديدة وطردتها، إلا إذا كانت مهمة آبية الرفض قامت النفس حينئذ بمراجعة الصورة الموجودة فيها وصياغتها لتستطيع احتضان الفكرة الجديدة..، كل ذلك في حدود ما تجيزه الأساسيات المركوزة في النفس فلا يمكنها أن تتجاوزها في القبول والرفض للأشياء...

ويجب أن لا يخفى أن هذا لم يكن إلا تحليلا ذهنيا مبسطا، لا تصويرا حقيقيا لعملية الاحتضان، أو الرفض، أوالتوفيق التي تحصل في النفس بتلقائية وبسرعة عظيمة تأبى الرصد والملاحظة في حينها...

ثم وإني لا أستطيع أن أوضح وأثبت لك الآن ما أعتقده من أن المنطلق الصالح للمعرفة التي لا يكون الإيمان من دونها، إنما هي النفس بما لها من خصائص معينة... فأفترضه أصلا موضوعا...

وعلى أيّ حال، فلو لم يكن الذي ذكرته مفهوما لك فاعتبره لاغيا كأن لم تسمعه، إذ أنه سيضر إن تشوّه، وإن كان مفهوما لك ووجدته صحيحا فأسأل إذَن: هل القاعدة التي كنت قد اعترفت بصوابها في مورد الاهتمام باللباس في الحج هي من

محكمات نفسك، أي ثوابتهـا التي لا يمكنها التنازل عنها، أم أنها من التصورات التي قد تتغير؟

(**طالب**):ـ رغم اهتمامي المسبق بالمسـائل العقـائدية، وكثرة قراءتي عنهـا فقد وجدت كلامك دقيقـا وصعبـا، وبحاجة إلى كثير من الشرح والتوضيح، ولكني مع ذلك استطعت الإلـمام بمقصودك، وأمـا هل هو صحيح أو لا؟ فإني وإن كنت أميل الآن جدًّا إلى أنه صحيح، ولكني لا أستطيع الاطمئنـان بذلك إلا بعد مناقشته مناقشة متأنية... فأفترضه الآن صحيحـا، وأبني على ذلك، فأقول: إني أستطيع الإجابة على سؤالك بأني أجد أن القاعدة المذكورة مما لا يمكن لنفسي أن تتنازل عنها...

(**همّام**):ـ فإذَن ماذا كان يعني قولك من أن فرض الشريعة لباسا خاصا على الرجال في الحج قد يهزّ تلك القاعدة ويقلقها؟

(**طالب**):ـ إني كنت أنطـلق من ذهني، ولـم أكن منتبهـا إلى ما قـد ذكرته من أن المنطلق الـصالح للمعرفة هو النفس، وبعـد أن نبهتني إلى هذا الأمر فراجعت نفسي وجدت أنها لا تستطيع التنازل عن تلك الحقيقة ولا تعتقـد أمرا يناقضهـا ولكني مع ذلك أجدني بحـاجة إلى التوفيق بين تلك القـاعدة الأصيـلة في نفسي وبين لبـاس الإحرام، فما زلت أتساءل عن الحكمة في فرض الشريعة

لباسا خاصا لإحرام الرجال في الحج

(همّام):ـ هل تحديد لباس الإحرام بثوبين غير مخيطين يعني فرض قيدٍ على الحاج؟

(طالب):ـ أرى أن ملاحظة الواقع تدل بوضوح أن لباس الإحرام يقيد الحاج ويأخذ قسطا من اهتمامه، ألا تراه أنت كذلك؟

(همّام):ـ أراه كذلك، ولكن هل التقيد المشهود كان مطلوبا عند التشريع أم أنه شيء طارئ ناتج عن عوامل أخرى لا دخل للشريعة فيها؟

(طالب):ـ ماذا تقصد؟ أريد توضيحا...

(همّام):ـ حسنا، أتعلم أن الرداء والإزار كانا أحد نوعي اللباس المتعارفين في عهد النبي صلّى اللّه عليه وآله وأن النبي بنفسه كان في حياته العادية يلبسهما تارة، كما كان يلبس القميص والإزار المخيط تارة؟

(طالب):ـ عجيب! هل فِعلاً كان كذلك لباسهم المتعارف؟ إني لا أكاد أتصور وضعا كذلك...

(همّام):ـ أظنك قد تأثرت في هذا الاستغراب بما تعودت عليه مما تشاهد من لباس الناس، ولو كنت في اليمن أوالهند

وعـايشت أناسـا يلبسون الأزر بدل السراويل لزال استـغرابك، ولو عشت مع (غاندي) في الأربعينات من هذا القرن وهو يتجول ويخطب في أنحـاء الهند في إزار ورداء، لتغيرت نظرتك، أليس كذلك؟

(ثابت):ـ ما هـذا الـهراء؟! كيف تسيء للنبي صلّى اللّه عليه وآلـه بتشبيهه بكافر بوذي؟! استغفر اللّه! استغفر اللّه!

(طالب) ـ مهملا تعليق ثابت ـ : صحيح ذلك، وإن كثيرا مما يستـغربه المرء ليس إلا بسبب العادة، وإن علَيَّ أن أتذكر هذه الحقيقة في تعاملي مع الأمور... ، هلا تكمل ما كنت تقول من أن الرداء والإزار كانا أحد اللباسين السائدين آنذاك

(همّام):ـ أجل، إذن لم يكن لباس الإحرام بالنسبة للمسلمين حينئذ إلا لباسا متعارفا كانوا متعودين عليه، فلم يكن يشكل قيدا كما الآن، بل إنه كان أقرب نوعَي اللباس إلى الطبيعة فكان أسهل في التناول وأريح، فهو يشبه الآن لباس الخلوة مقارنا بلباس التجمل

وفي الـحقيقة إن الذي قد فرض على الحاج لم يكن هو لبس الرداء والإزار، بل عدم لبس المخيط، فلم يكن ذلك يقيّد الـحاج آنذاك، إن لم يكن يحرره...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ إذن فإصرارك على أن تـجعل زوجتـك تحرم في ثيابهـا العادية ناتج عن هذه الرؤية...

(همّام):ـ ولكني لست مصرا على إحرامها كذلك...

(ثابت):ـ الـحمد للّه قـد بدأ همّام يتجاوب معك أيها الأخ طالب، حيث تنـازل عن إصراره عـلى الإحرام بالـملابس الـعاديـة، وأنا سعيـد بهـذا الانتصار، وأشكرك عليه...

(طالب):ـ إنه ليس انتصارا لأحد على أحد، وإنما هو نقاش وتفاهم، أرجو أن تَدَع الأخ همّامًا يكمل ما أراد أن يقوله، فإنك قاطعته...

(همّام):ـ أجل، إني لسـت مصرا على أن تـحرم زوجتي كـذلك، فليس من دأبي أن أفرض على أحد أمرا غير واجب... ، بل وإني قمت بإقناعهـا بالإحرام بثيـاب الإحرام الـمتعارفة، بعد أن كانت هي بنفسـها مصرة على الإحرام في ثيابها العادية، ذلك لأني لا أرى الإحرام كذلك مناسبا في الحال الحاضر...

(ثابت):ـ سبحان اللّه! ما هذا؟! ألم تقل في هـذه الصالة أمام عقيل وفراس أن ذلك هو الـصحيح؟! ... لا بأس، فالمهم أنك في الأخير قـد عرفت خطأك وغيّرت رأيك وهذا يسعدني وينهي المشكلة

(طالب):ـ ماذا يقول أخوك ثابت ـ يا همّام ـ ؟ هل هو مخطئ؟

(همّام):ـ إني أنقـل إليـك ما حـدث: كان هنـاك حوار بيني وبين الأخوين اللذين ذكرهما ثابت حول الإسلام بشكل عام، وطيّ الحديث تطرقنا إلى الإحرام في الـحج، وقلت: إني أجد الأنسب بشريعة الحج كمفهوم أن تحرم المرأة في ثيابها العادية... فتلقفه ثابت ـ سامحه اللّه ـ وانتزعـه من إطـاره واعتـبره إعـلانا مني بأني أريد أن أحج بزوجتي في ثيابها المعتادة، بل واتهمني بأني أفتي باستحباب إحرام المرأة كذلك...، فجعل من ذلك قضية أقام بها الدنيا ضدّي!

(طالب):ـ لو أني أيضـا كنت سمعتك تقول: إن إحرام الـمرأة في ثيابها المعتادة أنسب بشريعة الحج... ، لتصورتُ أنك تقول باستحبـاب ذلك، ولتعجبتُ منك حينئذ كما فعل الأخ ثابت...

(ثابت):ـ أحسنت يا طالب!

(همّام):ـ هل كنت تكتفي بذلك التصور والتعجب؟

(طالب):ـ لا، طبعـا، بل كنت أناقشـك لأتأكـد، ولكن ليس كل الناس يفعلون مثلي، بل مثل ثابت على الأكثر... ، أليس كذلك؟

(همّام):ـ صحيح أن التفريق بين المسـائل المفهومية والمسائل الفقهية العملية لا يتوفر لمن ليس له إلمام جيّد بالفكر الديني ولكن الأخوين اللذين كنت أذاكرهمـا آنذاك همـا على درايـة جيدة

بالبحوث الـفكرية، فلم تكن مشكلة من جهتهمـا، وإنـما من جهة ثابت الذي صـادف وجوده حينـذاك، وبـما أنه ليس ملما بالـفكر الديني ولا مهتما بهـذا النمط من المسائل، فكان من الـطبيعي أن لا يستوعب الأمر، وأن يثير الزوبعة التي أثارهـا... ولا حول ولا قوة إلا باللّه، وعلى أيّ حال فإني أعترف بأني استرسلت فسقـطتُ، وفي البحار (٧٨/ ٢٠٦) عن الصادق عليه السلام: « إيّاك وسقطة الاسترسال فإنهـا لا تستقال »، وإن كنت قد استفـدت به تجربة نافعة

(ثابت):ـ ماذا تقول الآن وقد رأيت أن طالبًا فهم الأمر كما كنتُ قد فهمته أنا؟ فهل هو الآخر ليس ملما بالفكر الديني؟!

(همّام):ـ أجل، رغم أن الأخ طالبًا ملمّ إلماما جيّدا بالمسائل الفكرية المتـداولة، ولكنه ـ مثلك ـ يفتقد الإلمام الكافي بقواعد البحوث الفكرية الصحيحة، فلذلك لم يستوعب المسألة... ، ولكنه يختلف عنك في أنه يريد الإلـمام ويرغب في العلم، فلا يكتفي بما يخطر في باله، بل يسأل ويبحث ليفهم ويتأكد ويتيقن...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ أليس في هـذا التفريق بين الـمسائل المفهومية والفقهية ما يدعو إلى الانفـلات في التعـامل مع الدين من دون قيد وشرط، كما هو منتشر الآن خصوصا في أوساط المثقفين؟

(همّام):ـ لكي لا يتشتت الحوار ولا يتعقد أرجح تأجيل هذه المسألة إلى مجالها المناسب في هذا المجلس أوفي مناسبة أخرى، ولكن لحساسية هـذه الـمسألة، وخوفا من أن يسـاء فهمهـا لابدّ لي من وقفـة مختـصرة فأقول: إن مجالَيْ كل من المسائل المفهومية والمسـائل الفقهية مختـلفان، فهما لا تتضاربان ولا تتصادمان

يجهد الفقيه في عصر الغيبة لاستنباط حكم شرعي لمسألة معيّنة، فيطمئن بكون ما استنبطه هو الوظيفة الشرعية الواجبة أو المستحبة مثلا، فهو وإن كان يفتي حينئذ بوجوب الالتزام بذلك الحكم في مقـام العمل (أو الـعمل به)، لكن ليس له أن يفتي بوجوب الالتزام بذلك الحكم مثلا في التـصور والاعتقـاد أيضـا، وليس مانعه الوحيد عن ذلك ـ وإن كان كافيـا ـ أن احتمـال الـخطأ في الاستنبـاط وارد، واحتمال الـخطأ يمنع الاعتقاد، وإن كان لا ينافي وجوب العمل مثلا، أو وجوب الالتزام به...

بل قد يعتقد الفقيه بخلاف ما يفتي به كمسألة شرعية، من دون أن يناقض بذلك نفسه، فإن لكل من الأمرين مجاله الخاص كما أشرتُ... ، وإني أدعوك إلى قراءة ما قد أشار إليه السيد الشهيد الصدر رضوان اللّه عليه طيّ (عملية اكتشـاف الـمذهب الاقتصادي) في بداية الجزء الثاني من كتـاب (اقتصادنا)، وفي مقدمته أيضـا، فستجد هنالك ما يسهّل لك فهم هذا الموضوع إن شاء اللّه..

ثم إنـه لا يستـلزم الانفـلات الذي أشرت إليـه، فإن للفهم الـديني شروطا وقيودا معروفة ـ بإجمالها ـ عنـد من له إلـمام بالدين، وما يفعله كثير من النـاس في مورد الـدين، خصوصا ما يسمَّون بالمثقفين، ليس إلاّ جهلا معروفا إن لم يكن لعبا مكشوفا....

وأظن أن هـذه الإشارة المختصرة تكفي لأن لا تتخـذ موقفا متسرعا بهذا الصدد... أليس كذلك؟

(طالب):ـ لا بأس، فلأسـألك سؤالا آخر وهو: لِمَ لا تدع زوجتـك تحرم في ملابسها العادية ما دمت ترى ذلك أنسب بشريعة الحج؟

(همّام):ـ رغم أن هـذا الـسؤال يرتبـط بالـمسألـة التي اتفقنـا على تأجيـلها، أي مسـألة الفرق بين المسـائل المفهومية والفقهية، فإني أحاول الإجابة عليه فأقول: إن إحرام المرأة في ثيابها العـادية أوفق إذا كان الحج منهاجا موحدا مؤلفا من مسـائل مترابطة متعاضدة... ، وأما الآن حيث ليس الـحج إلا أفعـالا متجزئة للحـاج، من دون ارتبـاط خاص بينهـا، فالأنسب هو إحرامها بالطريقة المتعارفة ما لم تكن محرّمة...

ولأوضح لك هذا الأصل من خلال رواية الكافي (٤١١/١) وهي أن رجلا قال للإمام الصادق عليه السلام: أصلحك اللّه ذكرت أن

علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن: يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجديد! قال له: « إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر، ولو لبس ذلك اليوم شهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله، غير أن قائمنا أهل البيت إذا قام لبس لباس علي عليه السلام وسار بسيرة علي عليه السلام »

كان اللباس في عهد علي عليه السلام ـ كما في عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ـ يشير إلى اتجاه الحياة ويبلور إمامتها حيث كان الدين منهاجا شاملا ترتبط فيه الصلاة بالنسك وبالمحيا والممات وشتى مظاهر حياتهم... ، فأية ظاهرة من مظاهر الحياة كانت تؤثر سلبا وإيجابا في اتجاه المظاهر الأخرى ودعوتها... أتستطيع تصور أن يكون لباس المرء أو طعامه مثلا داعية؟

(طالب):ـ أذكر رواية قرأتها في الكافي (١/ ٤١٠) تشير إلى هذا، وهي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « إن اللّه جعلني إماما لخلقه، ففرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس، كي يقتدي الفقير بفقري، ولا يُطغي الغني غناه »

(همّام):ـ أحسنت، ولكن التواضع في الملبس في عهد

الإمـام الصادق عليه السلام لم يعـد يعني غير الـفقر أو البـخل، وكانت النظرة العامة تزدريهما

(ثابت):ـ لا حول ولا قوّة إلا باللّه! كيف تجرؤ على أن تصوّر الإمام عليه السلام إنسانا ضعيفـا يتأثر بنظرة الناس فيسايرهم مخافة أن يزدروه! فهل أنت ترضى لنفسك أن يتصورك أحد بهذه الـصورة؟! فكيف تفعله بالإمام عليه السلام؟! إني أدعوك إلى التوبـة والاستغفـار، والـكف عما تفعله من التحرش الدائم بالأئمة عليهم السلام

(طالب):ـ سبحان اللّه! إنك بتركيزك على مقطع من الكلام منزوعا من إطاره تشوّه الـفكرة، فتضر نفسـك قبل غيرك! ... لو أنك تعقّـلت الـكلام بإنصـاف لـعلمتَ أن الأخ همّاما إنـما أراد الإشارة إلى حكمة الإمام في مجـاراته للناس في ملبسهم، ولو لم تكفِك الإشـارة لانتظرتَ دُبُر الحديث أملا في أن يتضح لك الأمر بالتدريج، وإلا لسألت وناقشتَ... ، ثم وماذا تقصد بتحرش الأخ همّام الدائم بالأئمة عليهم السلام؟

(ثابت):ـ عجبا! ألم ترَ بنفسك طريقته في التعامل مع الأئمة عليهم السلام، حيث يأتي كلاًّ منهم، ولاسيما أمير المؤمنين عليه السلام، فيقتحم حياته العـامة والـخاصة، ويعطي لنفسه الـحق في

أن يتـدخل في جميع تصرفاته ويتناولها بالوصف والتحليل والشرح! أترضى أنت لنفسك أن يتجسس أحد من الناس شؤونك ويراقب حركاتك وسكنـاتك فيبتـذلها بالتفسير والتحـليل كما يشـاء؟! فكيف ترضى للإمام ما لا ترضـاه أنت لنفسك؟! ثم وهل يستطيع أحد من الناس أن يعرف الإمام ويصفه؟!

(همّام):ـ أظنك ـ أيهـا الأخ طالب ـ إنـما تبحث الآن عن طريقة للنجـاة من الورطة التي أوقعت نفسـك فيهـا! وإني أغيثك بدعوتك إلى الرجوع إلى الحوار، فهيا...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ حسنـا، لـقد قـلتَ في كلامـك الأخير إن التواضـع في الملبس في عهـد الصادق عليه السلام لم يعـد يعني غير الـفقر أوالبخل، ولكني أظن أن تواضع الملبس لم يقتصر آنذاك على الفقير والبخيل، بل كانت هنالك فئة إنما تفعل ذلك دينا وزهـدا في الدنيا، ولـم تكن النظرة العامة تزدري هؤلاء، أليس كذلك؟

(همّام):ـ ... سبحان اللّه، كيف غفلتُ عن هذا الأمر المهمّ؟! ... ، وعلى أيّ حـال فإني أشـكرك على تذكيرك لي بهـا، وأحمـد اللّه على لقياك،فلندرس الآن ـ وقبل كل شيء ـ مقدار صلة هذا الأمر بالموضوع الذي كنـا نتـداوله، فهل لك أن تزوّدني بـما تعرفه من التفـاصيل بهـذا الصدد؟

(طالب):ـ ليس في بالي الآن شيء محدد واضح، وإنما صورة إجمالية ناتجة عن قراءاتي المختلفة...

(همّام):ـ ما رأيك في أن نستعين في هذا البحث بأحد الإخوة الذي اسمه عقيل، وبيته ملاصق لبيتنا، فقد ينفعنا بما لديه من علم جيّد، ومعلومات دينية غزيرة ناتجة عن قراءاته الكثيرة مع ما قد أنعم اللّه عليه من ذاكرة خارقة؟ ألا تعرفه ولو بواسطة ثابت الذي يحبه لمرحه، وهو نسيبنا بعدُ؟

(طالب):ـ بلى، قد كان أخوك ثابت يذكره ويقص علَيَّ بعض نكاته، ولم أعلم أنه ذو علم، وإني أتعجب الآن كيف يحبه ثابت بإعجاب!..، وعلى أي حال فإني أحب أن ألتقيه

فيبادر ثابت فيخرج مسرعا، ويدعو عقيلا، فيأتي به

× × × × × × × × × ×

(عقيل):ـ السلام عليكم ورحمة اللّه

(همّام):ـ عليك السلام ورحمة اللّه وبركاته، هل تعلم ـ أو تخمّن ـ هدفنا من دعوتك إلى هذا المجلس؟

(عقيل):ـ هل حصل أن هذا الجالس قد تجرّأ عليك، فاستنجدت بي لأوقفه عند حدّه، وأثبت له أن لك إخوة ينصرونك ويدافعون عنك؟

(**طالب**):ـ سبحان اللّه! ما هذا؟! ...

(**همّام**):ـ إن الأخ عقيلا معروف بالمرح والتنكيت، خاصة في مثل هـذه الـمقامات، حيث أنه يرى أسلوبي في النقـاش جافا جدًّا فيتقصـد التلطيف والتعديل، ألم تقل أنك كنت قد سمعت بعض نكاته من قبل؟

(**طالب**):ـ بلى، .. ولكنها هي المرة الأولى التي جبهني بالنكتة

(**عقيل**):ـ جَبَهه جَبَهـًا، أي صَكَّ جبهتـه، كمـا في اللسان، أقصـد (لسان ابن منظور) لا لسـاني أنا، فمـا دمت اعتبرت مجرّد كلامي صكًّا لجبهتك فأنت أضعف من أن يخافه ويحذره أحد ولو كان بمستوى الأخ همّام في الضعف... ، فلماذا دعاني إذَن يا ترى؟!

(**همّام**) ـ مبتسما ـ : أحسنت يا عقيل في تلطيفـك للجوّ، إني أدعوك لتشاركنا في حوار فكري نافع إن شـاء اللّه فنحن بحـاجة إليـك (فيلخـص له المقـال، ويذكر قول طالب الأخير من أنه لا يذكر شواهـد تفصيلية عن الفئة الزاهدة المعاصرة للإمام الصادق عليه السلام)

(**عقيل**):ـ كيف يمكنني الاشتراك في حواركما ولست متـأكدا من كونه حوارا نافعا، ومجرد إخبارك لي بأنه نافع لا يقنعني بذلك، فإني قد جربت فيك الـمبالغة في حسن الـظن بالنـاس في إخـلاصهم

ومسـتوى فهمهم، فربّ كلمة صالحة تسمعها من امرئ فتظنها ثمرة لشجرة العلم والإيمان المتأصلة في نفسه في حين أنها قد تكون مجرد كلمة يتيمة بتراء خادعة! فتكتشف ذلك وتُصـدم بحبط جهـدك وأملك الذي كنتَ قد عقدتَ عليه! ...

(همّام):ـ قد يكون ما قلتَـه صحيحا، خصوصا وأنك، من جانبك، تبالغ في الحذر والاحتياط، فكيف العمل الآن لنجعلك تقتنع بنفع الحوار فتنشط للاشتراك فيه؟

(طالب):ـ ما هو النفع الذي تطلبه من الحوار أيها الأخ عقيل؟

(عقيل):ـ إن الحوار المفيد هو ما يخلص فيه المتحاورون البحث عن علم، ولا يكون العلم إلا أحد الأمور الثـلاثة الـمذكورة في الكافي (١/ ٣٢) عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وهي: « آية محكمة، أو فريضة عادلة، أوسنّة قائمة » أي علامة تدل الفكر على الحقّ المطلوب للمعرفة، أو حكم شرعي فرضه اللّه للعمل، أو طريقة هدى للاتباع

فهل ما يجري هنا هو البحث عن معالم التفكير الهادف، أو المسائل الفقهية للعمل والتطبيق، أو طريقة الهدى القائمة للاتباع؟

(طالب):ـ لقد أحسنت في ذكرك للرواية، فإني ومنذ أن قرأتها في الكافي أبحث عن معناها، وقد سألت عنها فلم أجد ما يرضيني،

وكأني أجد راحة نفسية في هـذا المعنى الذي ذكرتَه أنت، وأراني بحـاجة إلى استيضاحه ومناقشته لأتأكد من أن هذا المعنى هو ما تعنيه الرواية فعلا

(**عقيل**):ـ ما الذي دعاك للاهتمام بهذه الرواية خاصة؟

(**طالب**):ـ أنا أهتمّ بجميع الروايات، فإن لم أفهم معنى شيء منها بحثتُ عنه، وكانت هذه الرواية مما لم أفهمه، مضافا إلى أنها تحدّد العلم الـمطلوب، فكان علَيَّ أن أعرفهـا لأكون على بيّنة من أمري في طلب العلم

(**عقيل**):ـ فإذَن أنت لست متأكـدا من سلامة مسـار حوارك الآن مع الأخ همّام، لأنك بعدُ لم تعرف معنى الرواية، أليس كذلك؟

(**طالب**):ـ ...

(**عقيل**):ـ أليس عَيّ الأخ طالب عن الجواب يعني أنك ـ يا همّام ـ كنت قد أحسنت به الظن؟! ...

(**همّام**):ـ ما كان عيّ الأخ طالب تَيْهًا كما تصورتَ، بل كان لأنك قد عقّدت الأمر كعادتك، فأربكته، وإني سأشرح لك أمره:

إني أرى أن الأخ طالبا ـ كأي امرئ صالح آخر ـ إنما كان ينطـلق في طلبه للعلم من تطلعات نفسه الـفطرية، ويسير بوحي

منها، ولم يكن ينتظر لذلك نصّا خاصا من القرآن أو الحديث، ولما صادف الرواية حصل له تساؤل، لكنه ظلّ مجرد تساؤل ذهني، ولم يتسرّب إلى نفسه ليسبب خلخلة في موازناتها الفطرية، فظلت تعمل بنفس طريقتها الأولى في التطلع، والبحث، والقبول... ، ألم تر أنه لم يرتح إلا لما ذكرته أنت، ولم يكن ذلك إلا لأنه ناسب طريقة نفسه الذاتية...

هذا، وأخشى أن هذا التحليل المختصر الذي قد اضطررتني أنت إليه هو الآخر يقلق وضع الأخ طالب ويخرجه عن عفويته المطلوبة، وعلى أي حال فإني لا أظن أسلوبك في رصد اتجاه الحوار وتوجيهه نافعا

(عقيل):ـ فما هو الحل إذَن؟

(همّام):ـ الحل هوما عملته أنا مع الأخ طالب، بأن حاولت التعرف على وضعه وهدفه من النقاش، وذلك برصد أسئلته، وملاحظة أجوبته على أسئلة قد وجهتها إليه، فتبيّن لي أنه يتمتع بقلب سليم ومقدار كاف من الفهم، فقمت بإرشاده، فكلما دللتُه على أمر وفهمه ذهنه ـ مباشرة، أو بعد توضيح ـ وعرفته نفسه، قبله، وإلا توقف، وهكذا... ، وأعترف ـ مع ذلك ـ بأني قد غفلت بعض الأحيان فطرحت عليه من المسائل ما ربما قد أضرت بحالته العفوية، أو كادت

(طالب):ـ ماذا كنت تفعل معي لوكنتُ على غير ما وجدتني عليه؟

(همّام):ـ لئلا يتشتت بنا الأمر فإني أجيب على سؤالك باختصار شديد، فأقول: كنت أساعدك لتسترجع سلامة قلبك، وأما لو لم تكن تريد العون، أو لم يمكنني ذلك، لتركتك...

ومهما كان من أمر فإني أرجح إلغاء هذه الفقرة من النقاش واعتبارها كأن لم تكن، وأن نرجع إلى حوارنا الذي دعونا له الأخ، فهيا يا عقيل زوّدنا بما كنا بحاجة إليه بشأن لباس الإمام، وسوف يتبيّن لك بالتدريج أن الحوار نافع إن شاء اللّه...

× × × × × × × × × ×

(عقيل):ـ حسنًا، بما أنك ترغب في هذا الأمر، فإني ملبّيك وإن لم أكن مقتنعا بنفع الحوار، فإليك بعضُ ما أذكره بهذا الصدد: فمنها ما في الكافي (٦/ ٤٤٢) من أن سفيان الثوري رأى الإمام الصادق عليه السلام في المسجد الحرام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: واللّه لآتينّه ولأوبخنّه...

وأيضا ما في الكافي (٦/ ٤٤٣) من أن عباد بن كثير البصري تصدّى للإمام الصادق عليه السلام بشأن ثيابه المروية الحسان... ، وفي الرواية أن عبادا كان يلبس ثوبين قِطْريين، وأنا لا أبين لكما

معنى الثوب القِطْري الذي قد لا أعرفه بنفسي أيضا بالضبط! وكذلك الثياب المروية! ...

هذا ولأن الأخ طالبا لا يعرفني بعدُ فأقول له ما أكرره دائما وهو أني لست مسؤولا عن صحة أسناد النصوص التي أذكرها لأحد، وعما يستنبطه هو منها...

(همّام):ـ إذن ما هو السبب الأساس لما كان يلبسه الإمام من الثياب الحسان، إن كانت هناك فئة تلبس ثياب القصد من دون أن تزدريها الناس وتحتقرها؟

(عقيل):ـ وجود أناس زاهدين آنذاك ليس مما يتطلب شواهد معينة ليثبت، فإنه معروف بإجماله لأي امرئ ملمّ بالتاريخ، بل من المعروف أيضا أن هؤلاء الزاهدين ـ مضافا إلى سلوكهم الزاهد ـ كانوا يقومون بالدعوة إلى الزهد

وأما ما ذكرتماه من أن الناس لم يكونوا يحتقرون هؤلاء فهناك رواية في الكافي (٦/ ٤٤٣) تدل على أن الناس كانوا يتهمونهم بالمراءاة...

وبناء على عدم اعتبار الرواية، مثلا، وعلى فرض أن الناس كانوا يحترمون تلك الفئة فمن المعقول أنهم إنما كانوا ينظرون إليها كفئة خاصة ذات طريقة مثالية قد يقدسها الناس لكنهم لا يقتدون

بها، بل لا ينظرون إليها كأسوة، ذلك كالرهبان والقسيسين في الحال الحاضر، فإن النصارى يقدسونهم كفئة معينة مفصولة عن المجتمع العام، وإن كانت تعيش ضمنه

فبنـاء على هـذا الفرض المعقول ألم يكن وجود تلك الفئة آنذاك إنما يشكل بنفسـه عقبـة في طريق التواضع في الـملبس، حيث كان تواضع امرئ في اللباس إنـما كان يستـدعي في الأذهان طريقة خاصة تنتهجها فئـة معيـنة، فلو كان قـد فعـله الإمام عليـه السلام كان بذلك أيّد هؤلاء الزاهدين الذين كانوا يفتقدون المعرفة، فيأتون الدين من غير بابه؟

فخلاصة الكلام: إن الإمام لم يكن يستطيع التواضع في ملبسه، لأنه إما يُحتقر ويُهان كفقير أو بخيل، أو يعتبر ممن يدعو بدعوة بتراء متجسدة في فئة من الفئات الضالة...

ولمزيد من التوضيح أقول: كانت الخوارج فئـة قائمة آنذاك، وكانوا ينتـهجون التواضع في الـملبس، بل الدعوة إليه كما في محاجتهم لابن عباس مثلا والتي يرويها الكافي (٦/ ٤٤٢) ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك ضمن طريقتهم الضالة المعروفة

هـذا، وبـما أني ما زلتُ خارجَ الـحوار، وإنـما أعمل كمن يريد أن يغيث أحدًا! فأسأل: هل كفى هذا المقدار من الإغاثة، أم

ما زالت هنالك حاجة؟ فإن لدينا المزيد! ...

× × × × × × × × × × ×

(طالب):ـ ألا تجد أيها الأخ عقيل أن دعابتك قد تضر بعلمك وتقلل من تأثيره المطلوب؟

(همّام):ـ كما قلتُ: إنه لا يفعل ذلك عادة إلا في نطاق محدود، وبغية تلطيف جوّ النقاش الجاف، وإلا فهو رغم طبيعته المرحة جادّ هادف في أحاديثه وفي حياته بشكل عام، وإني مع ذلك أدعوه إلى تقليل المزاح... ، ومن المتوقع أنه بنفسه يعلم أن هناك روايات تذم المزاح، منها ما في الكافي (٢/ ٦٦٥): « إياك والمزاح فإنه يذهب بنور إيمانك، ويستخف بمروءتك »...

(ثابت):ـ سبحان اللّه! أتدعو عقيلا ليكون مثلك في أخلاقك الجافّة المنفرّة للناس؟! إني أحذّرك ـ أيها العزيز عقيل ـ من أن تسمع كلام همّام فتترك المرح، فإنك ستخسر بذلك صداقتي وحبّي...

(عقيل):ـ وما أفدحها من خسارة! و ما أخوفه من تحذير! وكيف لي العيش من دون حبّك؟!

(همّام):ـ دع هذا يا عقيل، فإننا ما زلنا بحاجة إلى المزيد من علمك، فقل لنا: كيف كان تواضع الإمام عليه السلام في الملبس يؤشر إلى تلك الفئات ويسندها، بدل أن يجسّد إمامة الأئمة أنفسهم...

(عقيل):ـ رغم أن التواضع في الملبس كان معلما من معالم إمامة الأئمة عليهم السلام، لكنه لم يكن منطلقا من منطلقاتها والسمة البارزة فيهـا، وإنـما كان مجرد أمر ضمن أمور عديدة مترابطـة متـدرجة كان جميعهـا تشـكل إمامتهم، فالتمسك به وحده قد يؤدي إلى تـجزئة تلك الأمور المترابطة..

وأما الفئات الزاهدة فبما أنها لم تكن تعرف الإمامة والولاية وكانت تأتي الـدين من غير بابه، فكانت تتعـامل مع أي شيء بمعزل عن الأمور الأخرى، فكان تمسكها بأي أمر يجعله سمة بارزة في عرض ما لطريقتها من سمات مشابهة أخرى، ما لم تكن هناك إمامة تنظمها وتسلسلها نحو هدف مطلوب صالح

وبهذا يتبين أن التمسك بالملبس الـمتواضع وحده لا يكون إلا عملا مبتورا فلا يكون بمفرده مؤشرا إلى الإمامة، وإنـما مجسّدا لطريقة أناس آخرين كانوا قد ركزوا على اللباس بمعزل عن الإمامة...

(همّام):ـ لقـد أحسنت وأجدت، ولكنك لم تكمل شرحك بذكر أمرين آخرين هما: أن إصلاح اللباس لا يمكن أن يتم إلا بالإمامة القائمة، ولو فرض إمكان ذلك من دونها فإن صلاح اللباس وحده لا يجدي شيئا

(عقيل):ـ لقـد أحسنت حيث نبـهتني (بأُلـغُوزة!) إلى أمرين

مهمين كنت غافلا عنهما، فإني إذَن لم أحسن ولم أُجِدْ... ، ولكن لا بأس فإن الجواد قد يكبو، والسيف قد يخبو، كما في المثل المعروف! ثم وهل فهمت ألغوزتي؟!

(همّام):ـ إن المثل الذي ذكرته هزلا صحيح جدًّا يا عقيل ولا يتوقع أحد منك أن تعرف كل شيء فإن فَوْقَ كُلِّ ذِيْ عِلْم عَلِيْمٌ، وقد فهمتُ أُلغُوزتك فقد قصدتَ منها الطنز بي، حيث كُنتُ قد أشرتُ إلى الأمرين المهمين باقتضاب شديد كالألغاز، في حين أنهما يستحقان كثيرا من الاهتمام والتركيز والشرح والتفصيل... ، أليس كذلك؟

(عقيل):ـ فهلاّ عملتَ بما علمتَ؟!

(همّام):ـ ليس كل ما يُعلم يُعمل... وإني لم أُرد أن أفتح على الأخ طالب جميع الأبواب مرة واحدة مخافة أن يضيع، وهو جديد العهد بهذا النمط من البحوث... ، وعلى أي حال فإني سائلك: كيف عرفت أن تلك الفئات إنما كانت تركز على تواضع اللباس منفصلا عن أمور أخرى؟

(عقيل):ـ إني ملبّيك فأقول: إن مجرد جهل هؤلاء بالإمامة يكفي للعلم بأنهم كانوا يتعاملون مع كل شيء بانفلات، مضافا إلى ما في بعض الروايات من أن عباد البصري وغيره كانوا يتصدون

للأئمة عليهم السلام بخصوص ملابسهم

(همّام):ـ لقد أحسنت يا عقيل، فجزاك اللّه عن دينه خيرا

(ثابت):ـ سبحان اللّه! إن كان الأخ عقيلا أحسن فيما قال، فلماذا تركز أنت على اللباس الجميل إذَن وتنتقده دائما، مثلما كانت تفعلها الفئات الضالة حسب تعبيرك؟

(همّام):ـ ...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ لماذا سكتّ يا همّام ولم تردّ على ثابت، فهل وجدت إشكاله عليك صحيحا؟

(همّام):ـ إني لا أرد على إشكال ثابت، فرارا عن الجدل العقيم، ومخافة الوقوع في مزيد من المشاكل، وإني سأشرح له الموضوع هذه المرة بصورة استثنائية لتتبيّن كيفية تعامله مع الرد، فأقول:

إن الذي أفعله أنا من التركيز على اللباس إنما هو لتوضيح الإمامة، وما ذكره الأخ عقيل وأحسن شرحه كان راجعا إلى السلوك الخارجي

ويوضح هذا الفرق ما في الرواية السابقة عن الكافي (١/ ٤١١) وهي أن رجلا قال للإمام الصادق عليه السلام: أصلحك اللّه

ذكرت أن علي ابن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الـخشن: يلبس الـقميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الـجديد! قال له: « إن علي ابن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر، ولو لبس ذلك اليوم شهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله، غير أن قائمنا أهل البيت إذا قام لبس لباس علي عليه السلام وسار بسيرة علي عليه السلام »

فحسب هـذه الرواية قد فعل الإمام عليه السلام كلا الأمرين، أي الأمر الذي أفعـله أنا من ذكر اللبـاس المتواضع كمعلم من معـالم الإمامة الصالحة، والأمر الذي قد ذكره الأخ عقيل من ضوابط التواضع العملي في الملبس وما يمنع عنه...

(ثابت):ـ لاحِظ أيهـا الأخ طالب إنـه يدعي وبكل جرأة أن الإمـام عليه السـلام فعـل نفس ما عمل هو، رحم اللّه من قـال: « إن لم تستح فافعل ما شئت! » وبغض النظر عن وقاحة الأسلوب، فإنه لا يكتفي بذكر اللباس كمعلم من معالم الإمامة الـصالحة حسبما نسبه إلى الإمام، بل إنما يركز عليه وينتقـد اللبـاس الـجميل، بل ويتصـدّى لمن يلبس ثوبا حسنـا ويلومه، كما فعل ببنت أختنا عبيق بالأمس، فهل كان الإمام يفعل مثله؟!

(عقيل):ـ أنا أتطوع بالإجابة عن الأخ همّام، فإنه لا يكاد يجرؤ على مجابهة أخيه ثابت...

أنا عرفت القصة عن طريق زوجتي التي كانت حاضرة ذلك اليوم في اجتماع عائلي أسبوعي، وكانت عبيق ترفل في ثياب ملفتة للأنظار، ولما لاحظَتْ أن ثيابها أثارت إعجاب أكثر من في المجلس بدأت تتحدث وبصوت عال عن قيمة ذلك الثوب وقماشه وخياطته، وأنه آخر صيحة في عالم الموضة، وأنها لا تعرف واحدة غيرها تملك مثله... إلخ، ومن اللطيف أن ثابتًا كان إحدى المعجبات المُثنيات!!

(**طالب**):ـ إنما تقصد أن ثابتًا كان أحد المعجبين المثنين، أليس كذلك؟

(**عقيل**):ـ تقصدتُ التعبير عنه بـ(إحدى المعجبات المثنيات) تطبيقا لقاعدة (التغليب) حيث جميع من أعجب بثياب عبيق آنذاك كانت من النساء باستثناء ثابت الذي كانت الرجل الوحيدة فيهن!

(**ثابت**):ـ نعم، إني أثنيت على ذلك الثوب، وكان يستحق الثناء، أليس اللّه جميلا يحب الجمال؟

(**عقيل**):ـ ما كنت أعلم، ولا أظن أحدًا يعلم أن اللّه يحب الموضة ويتابعها ويحث عباده الصالحين إلى الاهتمام بها، فشكرا لثابت على هذه المعلومة القيمة! ... فلأكمل ما كنت بصدده: فحينذاك قام الأخ همّام بواجبه فقال لعبيق: إنك تقللين

من شـأن نفسـك بتكبير ثيـابك وتعظيمها... ، وبالطبع قال هذا الكلام بأسلوبه الخاص لا بهذا الأسلوب الناعم اللبق

(طالب):ـ ثم ماذا حصل؟

(عقيل):ـكان من الـطبيعي أن يثـأر ثابت لكرامة عبيق العزيزة عليه ويردّ الصاع صاعين... ورغم استسلام الأخ همّام وسكوته فإن المعركة لم تكن تنتـهي إلا بتـدخل خـاص من زوجتي التي هي أختهمـا، (ولـها الشكر الجزيل على ما فعلت)، وعلى أي حال كان تصـدي الأخ همّام لعبيق، كغير ذلك من التصـديات، ضروريا لبيان الحق الـمغفول وحماية للحاضرات من خطر الوقوع في بالوعة الموضة... ، وأما ما يفعله همّام بعـض الأحيان من انتقـاد اللبـاس الـجميل (حسب تعبير ثابت) أو لباس الـتكبّر (حسب تعبيري) فليس انتقـادا لـه كلبـاس خاص، بل باعتبـاره مؤشرا من مؤشرات الاستكبار الذي هو من أصول الكفر كما في رواية الكافي (٢/ ٢٨٩)...

× × × × × × × × × ×

(ثابت):ـ كيف يكون اللباس الـجميل دليل التكبر، وقد كان يلبسه الأئمة عليهم السلام؟!

(عقيل):ـ هـل كان الأئمـة عليهم السـلام يلبسون اللباس

الـجميل للتظاهر به مثل ما فعلته بنت أختك عبيق؟ لا أظنك تجرؤ على ذلك...

(ثابت):ـ فلِمَ كانوا يفعلون ذلك إذَن؟

(عقيل):ـ يبدو أن تحذيري قد أدّى مفعوله وأثر عليك، حيث جعلك تسأل بدل أن تتهجم، وإني أعتبر هذا بادرة خير فأحوّل سؤالك إلى الأخ همّام ليجيب عليه

(همّام):ـ اللباس لباسان: لباس قصد، ولباس تظاهر. أما لباس القصد (الهادف) فهو نوعان: لباس يلبسه الإمام إذا كان قائمـا فيستهـدف به الستر والوقاية والتجمل كحاجة طبيعية فقط، وذلك كلباس أمير المؤمنين عليه السلام مثلا، ولباس يلبسه الإمام إذا كان قاعدا فيستهدف به مداراة العرف الضال لئلا يُهان، ولأن يكون هـذا النوع من اللباس لباس قصد كذلك كان يجب أن يبقى في حدود اللباس المتعارف ولا يتجاوز ذلك بحيث يلفت الأنظار... كما وأن الإمام القاعد يذكّر المؤمنين بـ(اللباس الإمام) كلباس علي عليه السلام، لكي لا يُتصور أن ما يلبسه الإمام القاعد هو (اللباس الإمام)

واللباس الثـاني هو ما يتظـاهر به المرء ليعـلو بـه على غيره ويتكبر، كما يفعله الناس الآن، وكمـا يستهدفه العرف الكافر ويروّجه

في شتى جوانب الحياة، ومنها لباس المرأة خاصة...

× × × × × × × × × ×

(عقيل):ـ لي هنـا ملاحظتـان أظنهما تعجبـان ثابتًا، أولاهما: أنك اعتبرت (التجمل) من القصد، فما هو الإشكال إذَن على عبيق ولم تفعل إلا التجمل بلباسها؟

والملاحظة الثـانية: أنه يظهر من بعض الروايات ما يناقض كلامك من أن الإمام القـاعد إنما يلبس المتعارف من اللبـاس، فإن المنقول عن بعضهم أنهم كانوا يلبسون ثيابا غالية، واللباس الغالي يكون فوق المتعارف عادة، وكما في رواية الكافي (٦/ ٤٤٢) التي دلت على أن ثيـاب الإمام الصادق عليه السلام كانت حسنة غالية فلفتت نظر الثوري، هل كان الإشكالان رائعين يا ثابت وأعجباك؟!

(ثابت):ـ كانا رائعـين فعـلا وأعجبـاني، ويعجبني أكثر لو وجدتك صامدا مستمرا على الإشكال...

(همّام):ـ إن التجمل الذي لا ينافي القصد هو ما يقابل التباؤس كما في بعض الروايات (الكافي: ٦/ ٤٤٠)، فهو في الحقيقة إنما يعني إزالة ما يتأفف منه الناس عادة، إما بطبعهم وإن كانوا في ظل إمامة قائمة هادية كتأذيهم من الرائحة المنتنة مثلا، وإما بإيحـاء من إمامة ضالة، كتـأفف الناس الآن من اللباس الفاقد للمقاييس المتعارفة،

كاللباس المرقع أو الـحذاء من دون جورب مثلا

فالتجمل إذَن يشبه ما في (وسائل الشيعة: ١/ ٢٤٧) ـ نقلا عن الخصال ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام: « ... تنظفوا بالـماء من المنتن الريح الذي يُتأذى منه، تعهدوا أنفسكم فإن اللّه عزّ وجلّ يبغض من عباده القاذورة الذي يتأنف به من جلس إليه... »

ولا يمكن أن يعني التجمل الذي فعلته (عبيق) مثلا، فإنه إن لم يكن من لباس الشهرة المنهي عنه كان من الرئاء الذي لا يتلاءم مع الدين، ولا أظن أن هـذا مما يخـفى على أحد وإن لم يكن عـارفا بأمر الأئمة عليهم السلام وعالما بتأثير اللباس على النفوس الآن، ودفعهـا نحو هـدف إمامة الدنيا الكافرة...

وأما غلاء لباس الإمام فقد يكون هو المتعـارف حسب مقياس الوسط الـذي عاش فيه، بحيث لو أنه لم يلبسه لأهـين، وأمـا لفت ملابس الإمام الصادق (ع) نظر الثوري فلعـله كان لـخصوصية الإمام، لا لخصوصية اللباس...

(عقيل):ـ لقـد أصبح الوضع محرجـا يا ثابت... ، فهل تسمح لي بالاستسـلام وقـبول الـحق، أم تأمرني بالتـصلب والاستـمرار في الـعناد والتمسك بالباطل، عملا بمقولة:« *النار ولا العار* » ؟!

(ثابت):ـ كان عليَّ أن أنتبه إلى أن إشكالك على همّام لا ينتهي

في الأخير إلا إلى إسناده وتثبيت موقفه، فإني لا أتصور أنك تقدر على الإساءة إليه، بل وحتى على مجرد مخالفته...

(عقيل):ـ إني أقدر على ما هو أكثر من الإساءة إليه، فبماذا تأمرني لأثبت لك ذلك؟ ...

× × × × × × × × × × ×

(طالب):ـ إني أحمد اللّه وأشكرك أيها الأخ همّام على هذا اللقاء الذي كان مفيدا لي جدا وممتعا، وبما أن الوقت قد طال كثيرا، فإني أعتذر إليكم وأترككم لترتاحوا...

(ثابت):ـ سبحان اللّه! ماذا دهاك يا طالب؟! إني كنت أتوقع منك غير هذا... ،كيف تصف هذه الجلسة بالمفيدة الممتعة ولم يُذكر فيها إلا أشياء مبهمة غير مفهومة، أو عدة مسائل مبتورات متداخلات، لا يكاد المرء يركز على إحداها ليتابعها بغية الحصول على شيء مشخص، إلا وهي تنقطع لتبدأ مسألة مبتورة أخرى، وهلمّ جرًّا... ، فلو وصفت هذه الجلسة بالمضيعة للوقت والمملّة المتعبة لقلتَ حقا ونطقت صدقا... ويا ليت (الـ. الـ.) كان حاضرا فيلقي علينا محاضرة من محاضراته الرائعة فيخرج منها كل واحد منا بحصيلة واضحة محددة قابلة للتداول والنقل للآخرين

(طالب):ـ إني أتفهم ما تقصده، وأوافقك على أنه لا أحد

يستطيع الخروج من هذا المجلس بفوائد مشخصة من النمط الذي يستهدفه الناس عادة، كيف وإن طبيعة المسـائل التي طرحت فيه تأبى الوقوف عند حدّ معين، فكل مسألة ترتبط بمسائل شتى متكاثرة باستمرار كالتكاثر المستمر لأغصان الشجرة وأوراقها

إن الذي قد طرح هنـا هذه الليلة هو(العلم) وحيث أني قد أخذت منه الليـلة، فقـد وجدتُني فعـلا أني أخذت (بحظّ وافر) كمـا في رواية كنت قد قرأتهـا في الكافي (١/ ٣٤) وإني أشكرك أيهـا الأخ عقيل أيضـا فإني قد استفدت منك، وإني سعيد بلقياك المفيد الممتع وأحمد اللّه على ذلك، وإني أحببتك جدًّا، وسألتقي بك بعد هذا كثيرا إن شاء اللّه

(عقيل): رغم شكرك لي وما أظهرت تـجاهي من محبّة فإني أرى من الـضروري أن أجبَهَك بحقيقة مُرّة فأقول: بـما أنك لا تعرف الأمور وروابطهـا بعـدُ، فلا تستطيع تشخيص صلاح نقاش من فسـاده، لتعرف أن حديث هـذه الليـلة قد تشتت وخرج ـ بدرجة أو أخرى ـ عن كونه موافقا لتطلعات القلب الفطرية، ومنتجا للعقيدة أو زيادة في الإيمان إلى حديث ذهني لا يكاد ينفع شيئا إلا الإمتاع والجدل... ، فإني بهذا أؤيّد ثابتًا بعض التأييـد في ادعائه، وبطريقتي الخاصة طبعـا، فأقول: إن الجلسة لم تكن مفيدة وكما ينبغي...

هيا يا ثابت اشكرني فإني رفعت بهذا الإشكال شيئا من رأسك؟!
وأزيدك شموخ أنف بأن هنـاك نظرية مستنـدة إلى بعض الروايات، فلو أنها صحّت لأتت على كل ما قيل في هذا الـمجلس بشأن لباس الأئمة عليهم السلام، وإننا لـم نتطرق إليها عمدا، فماذا تعطيني لو ذكرتها لك؟

(ثابت):ـ إني لا أرجو النـفع لـديك، فتـجربتي معـك أنك لا تبـدأ بالتعاطف معي فتجـعلني أستبشر وأتفاءل خيرا إلا وورطتني في مشكلة جديدة، فكفاني تجربة، وإني آيس من خيرك، ولا تستحق مني شكرا، فليشكرك همّام الذي لا تقصر في دعمه والدفاع عنه!

(همّام):ـ إني أشكرك فعـلا ـ يا عقيل ـ وأكاد أصدّقك في تقييمك لجلسة الليلة، وإني أعتزّ بدقتك، وبإحساسك الشديد بالـمسؤولية الدينية، فهـلاّ قوّمتَ الـحوار في حينه، بدل أن تستشكل وقد فات الأوان، كما وأتعجب كيف لا تنتبه مع ذلك إلى أن ما تفعـله من الـمزاح والهزل قد يدمر جِدَّك ويحجب دعوتك عن النفوس، كما وقد يجرح بعض الناس خصوصا هذه الليلة حيث قد تعرضت للأخ ثابت كثيرا، فإني أرى أن عليك الاعتذار منه...

(ثابت):ـ مزاح الأخ عقيل لا يجرحني، بل يؤنسني، وهو يعلم ذلك، فلا معنى للاعتذار، وعليك أن لا تتدخل في شؤوننا نحن الإثنين

(**عقيل**):ـ أحسنت يا ثابت! هـذا هو الجزاء المناسب لفضوليّ يقحم نفسه فيمـا لا يعنيه، ويتطوع للمحاماة عمن لا يريده! وليكن هـذا تجربة تجعله يكف عما يفعله من التدخل المستمر في شؤون الناس بالبحث في أغوار نفوسهم للتعرف على أسباب ضلالها أوهداها، فهل الناس أوكلوا أمرهم إليه ليهتم بما هم عليه من الصلاح أو الفساد، ويعاني لأجلهم؟!

ولكن مع كل ذلك، ولتخفيف الـصدمة عنه فإني أداريه وأستجيب له، فأعتـذر إليك عن كل ما صدر مني بحقك من الإساءة أو الإحسان! أوما يصدر مستقبلا...

وأما إشكالك علَيَّ ـ أيها الأخ همّام ـ بأني لم أحاول تعديل الحوار، فجوابه أني لم أستطع الدخول معكما في الحوار كشريك كامل، مضافا إلى أني لم أكـن أجرؤ مع وجـودك على التـدخـل الـصريح في مسـار الحوار وتغييره

هذا، ولا أدري هل ساهم مزاحي في زيادة المشكلة لأعتذر، أم في تخفيفها لأنتظر منكما الشكر! ولا أظنكما تفعلان...

(**ثابت**):ـ لا يهمك شكرهمـا، فإني أشـكرك جـدًّا على مزاحك، كما وأشكر الأخ طالبا على ما قد فعـله من إثنائه لهمّام عما كان يريد أن يفضحنا به في الـحج فقـد رفع بذلك حملا ثقيلا عن كاهلي،

وجعلني أستطيع تحمل ما سمعته من الهراء واللغط في هذه الليلة...

(طالب):ـ سبحان اللّه! ألم يكفِ تصريح الأخ همّام، مدعوما بكل هـذا الحوار الـطويل، ليثبت لك أنه لم يكن ينوي القيام بـما كنت تعتبره فضيحة؟!

(ثابت):ـ ليكن كلامك صحيحا، فالمهم ليس أي شيء آخر غير أن ما كان يقلقني قد زال والحمد للّه، سواء أبسببك أم بسبب آخر... ، فها أنا أودعكم بارتياح، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

(عقيل):ـ يبـدو أن الأخ طالبا قد غيّر رأيه فقرر البقـاء للمنام هنـا أو السهر، وبـما أني بحاجة إلى النوم فإني ذاهب، ولكني قبل أن أذهب، أود أن أعلن أمرا بصدد المرح المعروف عني، وهو أني لا أتصنع المزاح، وإنما هو طبع فيّ فيصعب عليَّ التخلي عنه، ولم أكن أراه ضارًّا فكنت لا أبالي به، غير أن مواعظك المركزة ـ أيها الأخ همّام ـ وكذلك تذكير الأخ طالب، جعلتني أخاف ضرره فعلا على خلاف ما كنت أتصور...

بناء على ذلك فإني قررت أن أبدأ من الآن ـ إن شـاء اللّه ـ بتدريب نفسي على الـجدّ الـخالص، غير أن الـجدّ الـذي أنا مقبل عليه سوف لا يكون من النوع الذي معه الغلظة بل من النوع الذي سيكون معه رفق وحنان بإذن اللّه... ، فإلى اللقـاء الـجاد إن شاء

اللّه، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

× × × × × × × × × × ×

(طالب): ـ مخاطبا (همام) ـ قبل أن أذهب وأتركك لترتاح، أود أن أسألك عما يفعله الأخ عقيل بالأخ ثابت من الإهانة والاستخفاف، فهل من المعقول أنه لا يعلم حرمة إهانة المؤمن واستخفافه؟!

(همّام):ـ بلى، إنه عالم بالمسألة، ولكنه يرى أن ما يعمله تجاه ثابت ليس إلا مزاحا هازلا، وليس حكم المزاح كحكم الجد، خصوصا إذا كان المازح معروفا بالمزاح، ألا ترى أن ثابتًا لا يجد في نفسه حزازة مما يفعله الأخ عقيل، فإنه لا يرى ذلك إهانة له، وإلا فإنه لا يسكت على الضيم...

ثم إن الأخ عقيلا لا يعتبر ثابتًا مؤمنًا بالأئمة عليهم السلام بحقّ ومواليًا لهم، ويستدلّ على ذلك بأنه لا يعرفهم ولا يرغب في معرفتهم، فإذن لا يمكن أن يكون ممّن يحبّهم ويتولاّهم... ، أليس هذا المنطق غريبا؟!

(طالب):ـ رغم أني لم أستوعب هذا الذي نقلته عنه، فقد تراءى لي أنه منطق غريب فعلا... ، فهل لك أن توضحه لي؟

(همّام):ـ للأخ عقيل كلام طويل ومتشعب حول رأيه هذا

وآراء أخرى له مشابهة، فلا يمكنني نقله لك، بل أظنني قد أخطأت في طرح الـمسألة عليك بهذه الـصورة الغامضة التي قد تسيء فهمها، فأرجو أن تعتبر نفسك كأن لم تسمع مني بهذا الصدد شيئا، ...

الجزء الثاني

بسم اللّه الرحمن الرحيم

(طالب):ـ السلام عليكم ورحمة اللّه

(همّام):ـ عليكم السلام ورحمة اللّه

(طالب):ـ نسيت في الجلسة السـابقة أن أستوعدك لقـاء ثانيا، فإني آتيك الآن ـ أيها الأخ همّام ـ لتحدّد لي موعدًا، أو لنتحادث إن لم تكن منشغلا بشيء أهم

(همّام):ـ إني سعيد باستمرار رغبتك في التحادث والبحث، وإني مستعدّ لـذلك الآن، فادخل على بركة اللّه، ولكننا ـ مع الأسف ـ نفتقد الليلة الأخ عقيلا لسفره، وفي الـمقابل فإن ثابتا هو الآخر مسافر، فليس معنا أحد غير اللّه...

(طالب):ـ وددتُ أن أسألك أوّلاً عمـا كان الأخ عقيل قد قاله في الجلسة الماضية، وهو « إن حديث هـذه الليلة قد تشتت وخرج (بدرجة أو أخرى) عن كونه موافقـا لتطلعـات القلب الفطرية، وموجبًـا لرسوخ في الـعقيدة و زيادة في الإيـمان إلى حديث ذهني لا يكاد ينفع شيئا إلا الإمتاع والجدل »، فما هو الفرق بين النمطين من الحديث؟

(همّام):ـ عجيب حفظك لقول الأخ بنصه! فهل أنت في الـحفظ مثـله، فإني لم ألمس فيك قوة حفظٍ مُلفتة؟

(**طالب**):ـ ذاكرتي عادية، غير أن مـا كان قد ذكره الأخ لفت نظري فارتسم في ذاكرتي

(**همّام**):ـ إن ما ذكره الأخ هو ما كنت قد أشرتُ إليه أنا أيضا لـما ذكرت جانبا من خصائص النفس في التعـامل مع الأفكار من أن المنطلق الصالح للمعرفة التي لا يكون الإيمان من دونها إنما هي النفس بما لهـا من خصائص معينة... فافترضته أصلا موضوعا لأني لم أستـطع إثبـاته لك، ولا توضيحه، ألا تذكر ذلك؟

(**طالب**):ـ أجل، لقد ذكرته، فهل لك أن تذكر لي شيئا منه الآن؟

(**همّام**):ـ إنه أمر متشعّب وذو أبعاد عديدة شائكة متشابكة لا يمكن تجزئتهـا، وأنا لست بقـادر على أكثر من إلقـاء خافتٍ من الـضوء عليه، عسى أن ينفعك كنقطة انطـلاق لبحث شامل متناسب لـهذا الأمر المهم جدًّا... ، ولأن يصبح الحديث أكثر واقعية فاسألني عما تجده في نفسك في هذا الباب، من دون أن تتوقع مني الجواب على كل ما تسألني عنه

(**طالب**):ـ ماذا تقصد بالذهن والنفس، وما هو الفرق بينهما؟

(**همّام**):ـ أقصـد بالـذهن ما يفكر به الـمرء، وهو قريب مما يسمّيه الفـلاسفة بالـعقل، وأقصـد بالنفس مـا يحسّ بـه المرء ويتفـاعل ويحب ويبغض... وما يتحوّل به نتاج الفكر إلى صبغة

وإيمان... فهي قريبة من (الـقلب) ببعض معانيه، ولأن معنى كل من العقل والقلب ليس محـدّدًا واضحـا الآن في عـامّة الأذهان، ارتأينا استعمال الذهن والنفس. وفي الكافي (٢/٣١٦) روايـة عن الإمام الباقر عليه السلام تحتوي كلمـة الذهن مستعملة في هـذا الـمعنى، تقول: « ... ولا تُشعروا قلوبكم الاشتغال بما فات، فتُشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت »

× × × × × × × × ×

(طالب):ـ مادام الإنسان إنما يفكر بذهنه، وما دام الفكر شيئا جيدا ومطلوبا، فماذا كان يقصد الأخ بأن الـحديث الذهني لا ينفع شيئا غير الإمتاع والجدل؟

(همّام):ـ ليس الـجيّد المطلوب هو مطلق الفكر وبأيّ شكل كان، بل الفكر الهـادف هـدفا صالحا، وهو ما يعني (العقل) بمعناه المذكور في الكافي (١/١١) من أن العقل (ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان...)

صحيح أن الإنسان إنما يفكر بذهنه، ولكن الذي يحدّد وجهة الفكر فيجعلها مهتدية أو ضالة ليس ذهنه، بل نفسه، وذلك لأن الذهن باعتباره أداة للتفكير المستمر إنما يخضع لأوامر النفس، لافي أن يفكر أو لا يفكر، بل في اتجاه التفكير ومساره، فإن النفس هي التي

تقود الذهن إلى الجهة التي تنزع إليها، وبالأحرى إن النزعة الغـالبة من نزعتي النفس الرئيسيتين المتصارعتين، أي الشهوة والنزعة إلى الحق، هي التي تحدّد مسار الذهن في عملية التفكير التي يقوم بهـا الذهن بإمكانياته الذاتية، وهو بهذا يشبه حصانا يقوده راكبه

فإن كانت النفس على فطرتهـا التي من أساسياتها النزعة إلى الـحق والانـجذاب إليه انتقل شوقهـا إلى الذهن فقـام بالبحث عن ذلك الحق، كما في (ظاهر) ما حكاه القرآن عن إبراهيم عليه السلام في بحثه عن (ربه)، حيث أن نفسه بفطرتها ـ كأيّ نفس سليمة أخرى ـ كانت تنزع إلى ربٍّ لو لم تعثر عليه ظلت قلقة غير مطمئنة، فنهض ذهنه بالبحث عما أوحته النفس إليه، فكلما اكتشف شيئا من الكوكب والـقمر والشمس عرضه عليها، فلم يكن أيّ منها ذلك الرب الذي كانت تنزع إليه نفسه وتـحبـه فأنكرَتْـه ورَفَضَتْـه، إلى أن وجدته في الـذي فـطر السمـاوات والأرض...

ومن جانب آخر فإن للنفس شـهوات أيضـا مضـافا إلى تلك النزعة الفـطرية التي ذكرتُ، فهي بشـهوتها توحي إلى الـذهن أن يبحث عن أسهـل السُبُل وأريحهـا لنيلهـا، فيستجيب لها الذهن ويقوم بذلك النمط من البحث أيضا

وبـما أن من طبيعة الشـهوة أن الشيطان يزيّنها لتطغى وتسيطر

على النفس فكان الاصطدام والتصارع بينها وبين نزعة النفس إلى الحق، فقد تنتصر الشهوة حينا، فتطلب من الذهن أن لا يفكر إلا في الشهوات واكتشاف أشهى الطرق إليها فيفعل، فتارة يستمر هذا الانتصار ويترسخ إلى أن تختنق النزعة إلى الحق، فيصبح الذهن في خدمة الشهوات مستجيبا لندائها وحدها، كما هو في العالم الآن...

ومن هذا الباب أن النفس المشتهية قد توحي إلى الذهن أن يجادل عنها ويبرّر... ، ومن الجدل أن يفكر في أمور لا تمسّ النفس ولا تثقلها بأي عبء، فهي تشتهي الراحة فتأمر الذهن بأن يريحها من البحث الهادف بأن يلهو في حركته ولا يراجعها مادام لا يستطيع السكون والبقاء من دون تفكير... ، فهل أشططتُ وضيّعتُك؟

(طالب):ـ كلا، فإني استطعتُ الإلمام بالموضوع، فقد استمعتُ إليه باهتمام نابع عن إحساسي بالحاجة، وساعدتني أيضا قراءاتي السابقة للمقالات الفكرية مضافا إلى كونه قابلا للملاحظة والرصد الشخصي إذ يرتبط بما يمارسه المرء في حياته الواقعية بشكل مستمر... ، وقد تأكد لي ـ في نفس الوقت ـ أن هذا الأمر بمقدار ما هو مهمّ، فهو واسع ودقيق لا يمكن لي استيعابه إلا ببحث مُجهدٍ مُضنٍ

والـمسألة التي لا أقـدر على تأجيلهـا هي: ألم تكن الـمفاهيم التي تداولناها في الجلسة السابقة صحيحة؟ فلِمَ لا تكون نافعة إذن؟!

(همّام):ـ أجل، بنـاء على افتراض أن الـمفهوم الـذهني قـد يكون صحيحـا في نفسـه، فمن الممكن اعتبـار معظم مـا تداولنـاه من أفـكار صحيحـا على الإجمـال، ولكن الذي يجعل الـمفهوم نافعا ليس مجرد كونه صحيحا في نفسه، بل مضافا إلى ذلك كيفية تعامل المرء معه، فإذا كانت قد طلبتْه نفسه بتطلعاتهـا الـفطرية فوجدتْه، فازدادت به طمـأنينة وإيمانا، أصبح المفهوم الصحيح بذلك نافعا، وإذا كانت قد طلبتْه لهواها فوجدتْه كان ذلك إنعاشاً لهواها فكان ضارًّا

المفهوم الصحيح الموجود في الذهن كالماء الموجود في الخارج، فإذا عطش المرء فبحث عنه ووجده فشربه، كان بذلك نافعا له ومعـاشا، ولو طلبه لهواه أصبح بذلك لغوا، بل ضارًّا...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ استطعتُ إلى الآن أن أعرف أن مما يجعل الأفكار ذهنية هو هوى النـفس، حيث توحي إلى الـذهن أن يتنـاول الـفكر الصحيح ويلوكه بطريقة مشهية لـها، وللجدل عمـا تهواه بصورة مبـاشرة وغير مبـاشرة... ، وإني الآن بحـاجة إلى معرفة المقياس

الذي به يُميّز المفهوم الذهني عن غيره، وبصورة أكثر دقة: كيف علم الأخ عقيل أن الحوار كاد أن يكون ذهنيـا؟ ثم وقـد ذكرتَ في كلامك ما يشـكك في أصل وجود مفهوم ذهني صحيح! فهل لك أن توضحه لي كذلك؟

(همّام):ـ أظنك تعـلـم أن الذي نحن فيه الآن باب واسع لا يـمكن استيعابه، فها أنا أحاول الإشارة إلى ما يعرف به التعـامل الإيماني الصالح مع الأفكار، وأما المقطع الأخير من سؤالك فأهمله الآن لأكثر من سبب، فأقول:

لأن لا تظل الأفكار التي يبحث عنها الذهن ويجهزهـا مجرد أفكار ذهنية، بل تنتقل إلى نفس المفكر فتبلور فيهـا الإيمان وتنميه، لابدّ ـ قبل كل شيء ـ من توفر شرطـين مترابطـين، الأوّل أن ما يقوم به ذهنـه من التـفكير إنـما يكون بحثا عن علم تـحتاج إليه نفسه في سعيها إلى ربها، وذلك بأن ينطلق في بحثه من تطـلع نفسه الفـطري، إذ من المفترض أن نفسه كأي نفس صالـحة إنـما تنزع إلى الـحق وتحنّ إليـه ولا تصبر عنه كالظمـآن الذي لا يطيق الـصبر عن الـماء، فينتـقل شوقهـا إلى الذهن فيقوم بالبحث عن الحق المطلوب... ، وهذا ما أشرت إليه آنفا

والشرط الثـاني هو أن تكون الأفكار التي يجـدها بذهنه من

النمط القابل للانتقال إلى النفس وبلورة العقيدة فيها وفق ما لها من طريقة خاصة كنتُ قد أشرتُ إليها في بدايات الحوار الماضي

ففي مورد ذلك الحوار، فأنت أعلم الناس بنفسك وطريقة تعاملك معه، ولم يمكنني إلا الظن ـ إجمالا ـ بسلامة تعاملك، وأما الأخ عقيل فلم يحصل له حتى الظن بذلك

وفيما يتعلق بأصل الأفكار التي كنت قد عرضتها أنا أوعرضها الأخ عقيل، فإن معظمها كانت مناسبة لتطلعات النفس الفطرية، لكنها رغم ذلك لم تكن تنفعك إلا أن يكون قد قام ذهنك أنت، لا فقط بفهمها، بل بتنظيمها وتجهيزها لنفسك أيضا، وذلك كما يفعل الجائع الذي يجد طعاما كان قد هيأه طباخون وفق مقاييس عامة لما يحتاجه الجائعون، حيث يقوم هو بنفسه بعمليات تجهيزية خاصة من المضغ وغيره مما لا يتسنى لأحد غيره أن يقوم به نيابة عنه...

فهل وسعتُ الأمر وعقّدتُه؟ فإني أشفق عليك، وما زلت أخاف أن أضرّ بعفويتك، وإن كان خوفي بالتدريج خفّ كثيرا بعد أن كنت قد تابعتُ أسلوبك في التعامل مع الحوار وما طرح فيه من آراء وأفكار... ، وإني أستغرب بقاء نفسك وذهنك سليمين رغم كثرة قراءتك للمقالات الفكرية، الأمر الخطر الذي يكاد لا ينجو أحد

من أثره المدمرّ... ، آه! لقد أخطأت في ذكر هذه النقطة المشوشة الفاتحة لك بابًا في غير موقعها... فأرجو أن تستطيع إهمالها كأنك لم تسمعها

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ قد فتح لي الباب فعلاً، وإني أجد رغبة شديدة في دخوله والتعرف على ما وراءه وإن كان يبدو لي غريبا وموحشا ومجهول العاقبة.... غير أني أحاول إرجاء الأمر الآن وانتظار الوقت المناسب... فأقول:

قلتَ: أن معظم ما طرحتماه من الأفكار كانت صالحة، فإني سائلك إذَن: ما دمتما تشخصان الأفكار الصالحة فلِم لم تجعلا كل ما عرضتماه صالحا؟!

(همّام):ـ إن دقّتك عجيبة، وإني أحذّرك منها لئلاّ تخرجك عن طورك، أو تخرج الدين عن حدّه فيتشوّه، كما وأني أتعجب من شدّة اهتمامك بالمسائل، وأخاف منها أيضا، حيث تريد أن تفهم كل شيء مرّة واحدة، وذلك مما يتنافى مع التدرج الضروري في العلم والمعرفة...

وعلى أيّ حال فإني أجيب على سؤالك فأقول: إن ذلك لم يكن ممكنا لسببين رئيسيين: أوّلا عدم إمكان التفريق الدقيق

الكامل بين الفكر الـصالح وغيره من الأساس، إذ لا يوجد لـذلك مقيـاس موضوعي قاطع فاصل، وإنـما الأمر موكول إلى صاحب الـمعرفة وتشخيصه الـخاص لصـلاح الأفكار التي يتداولها بكونها مما يؤشر إلى الحق من جهة، وبأن النفس التي يطرح لهـا الفكر ستتلقاه بشكل صالح، وهـذا أمر لا يمكن التـأكّد التام منه إلا من قِبل المتلقي نفسه كما أشرتُ إليه آنفا... ، ألم ترَ اختلافي والأخ عقيل في تقييم الحوار بهذا اللحاظ؟

والسبب الثاني أن ما كنا قد عرضناه لم يكن كله أفكارا مؤشرة إلى الحق الـمطلوب، فقد كان منه ما قد طرح لمجرد التمهيـد والـجدال عن الـحق، أو صيغ صياغة جدلية... ، وأرجو أن لا يجعلك هـذا الـكلام لتطـالبني أن أبيّن لك الآن الفرق بين الجدال بالبـاطل، وبين الجدال بالحق الذي لا مناص منه أبدًا للهداية...

(طالب):ـ لا بأس، ولكنك ذكرتَ قبلئذ أن الشرطين هما قبل كل شيء، فماذا بعدهما؟

(همّام):ـ وبعد هذا وذاك فهناك سمات تدل على أن الفكر المتلقَّى قد تحوّل إلى الإيمان في النفس، منها أن يظهر في اتجاه ذلك الفكر (ولاء) متشعب متـدرج كالشـجرة تـجاه الأشياء والأشخـاص، وأيضـا (براء) كـذلك ولكن في اتجاه معاكس لاتجاه الولاء، فلو

لم يحصل ولاء وبراء متناسبان مع الفكر ذلك دليل على أنه لم يتعدّ الذهن إلى النفس، وذلك كالأفكار الفلسفية وما شابهها مما راجت في المسلمين والتي كان بعضهم يكفر بها بعضا، وعليها يتقاتلون، ولكن لم يكن ذلك التقاتل إلا مظهرًا لعداء متصنع مبتور...

ولنكتف بهذا المقدار، فإن الحديث شجون... والطريق غير مسلوك ووَعِرٌ جدًّا، ويكفي شاهدا على ما في هذا الأمر من صعوبات جمّة أنه لا يكاد يتمّ بصورة واضحة إلا بالفصل بين وظيفتي كل من الذهن والنفس، في حين أنهما يأبيان الانفصال عن بعضهما في تعاملهما العفوي! هذا إن أمكن القول بأنهما شيئان، فقد يكونان بُعدين لشيء واحد! ... ثم وإني لست متأكدا من كونه مفيدا لك في الحال الحاضر، إن لم أَخَفْ عليك من ضرره....

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ لإزالة الوسواس عن نفسك أذكر لك انطباعي بشأن هذا الحديث، فأوّلاً: لأثبت لك أني استطعتُ الإلمام بالموضوع واستفدتُ منه أقول: إن هذا الحديث قد فتح لي بابا لفهم روابط الأشياء والأشخاص، فمثلا بدأتُ أفهم لِمَ كان الأخ عقيل يعاملك باحترام خاص، ويطيعك، ولم يكن يتأذى من انتقادك له، فكأنه كان يرى لك الولاية عليه... ، في حين أنه لم يكن يشعر بأيّ ولاء ومودّة

تـجاه أخيك ثابت، وكان يعـامله كمن يعلن البراءة منه، رغم أن ثابتا من جانبه كان يحبه ويحترمه جدًّا! فهل كان يتولاه؟!

ومن جانب آخر بدأتُ أفهم الآن سبب عدم حبّك لثابت رغم كونه أخاك، فلم تكن تهتمّ به بأكثر مما تتطلبه صلة الرحم، بل وبدأتُ أشخص أن ما أشعر به الآن من حبك، يختلف عن أي حبّ آخر كنت قد جرّبته في حيـاتي، إذ أجد بفـهمي لمعنى الولاء الواعي أن حبي لك يشير إلى هذا النمط من الولاء...

وثانيا إن من انطبـاعي أيضا أني لم أكن قد قرأتُ أو سمعتُ من قبلُ موضوعا مهمّـا كهـذا، وذلك رغم ما فيه من ثغرات ناتـجة عن أسبـاب مختلفة، منها ما يرتبط بطبيعة هذا الموضوع نفسه، وذلك كمـا كنتَ قد أشرتَ إليه طَيَّ الحوار من أن ما يقوم به كل من الذهن والنفس في مورد الفكر والاعتقاد إنما يحصل بتلقائية سريعة تأبى الرصد والتحليل بالشكل الـدقيق، فكل ما يمكن قوله بهـذا الشـأن لا يكاد يكون إلا تحليلا ذهنـيا مبسطا، ومجرد إشارة من بعيـد إلى ما يسلكه الذهن بهذا الصـدد، وما تقوم به النفس من الاعتقاد المتمثل في عملية الاحتضـان، أو الرفض، أو التوفيق... ، هـذا مضافا إلى صعوبة (أو عدم إمكان) الفصل بين الذهن والنفس، الأمر الذي كنت قد أشرتَ إليه أيضا

وإني أضيف إلى هـذا وذاك، نقطة أخرى كنتُ قد انتبهت لها أثناء متابعتي لحديثك، وهي أن هـذا البحث لا يتمّ إلا بدراسات ميدانية دقيقة واسعـة في النـفوس، ولا أظن ذلك متوفرا الآن إلا للكفـار الـذين لـهم نشاطات ودراسات واسعة في هـذا الـمجال... فهل تراني قد أخطأتُ في ما قلتُ؟ فإني أردتُ أن أكشف لك ما وجدته في نفسي من حديث الليلة، وإني أعتذر من الاسترسال

× × × × × × × × ×

(همّام):ـ أحسنت كثيرا، ولم أتوقع أني سأجد فيك هـذه الـدرجة من الـذكاء والاهتمـام بمسـائل العقيدة، والحمد للّه على ما أنعم، وإني سعيد بك

(طالب):ـ هل لي أن أعتبر هذا الكلام إعلانا منك بأنك قد تولّيتني، كما تولّيتُك من جانبي؟

(همّام):ـ قد غفلتَ عن أمر مهم فتسرّعتَ في التوقع والحكم! إني قد وجدتُ فيك فهما جيّدًا واهتماما كبيرا بالفكر فارتحت لك وانفتحتُ عليك وأنستُ بك... ، وأما تولّيّ لك فإنه لا يحصل إلا أن تلتقي نفسي بنفسك وتجدها في طريقهـا، ولأني أرى هـذا الأمر مهمًّا فسأشرحه لك طيّ حوار، فأقول:

إني أراني ـ والـحمد للّه ـ ذا معرفة بالـدين وأصوله وأبوابه

وروابط مسـائله... ، وإني معتقد بما أعرف ومؤمن به، في حين أنك لا تعرف ما أنا أعرفه، فمن الطبيعي إذن أن لا تعتقد ما أعتقده، أليس كذلك؟

(طالب):ـ أنا مؤمن بالذي أنت تؤمن به، وإن كنت لا أعرفه بنفس الدقة والتفاصيل التي تعرفه أنت

(همّام):ـ ألا تحتمل أنك لو عرفتَ بعض ما أعرفه وأعتقده لأنكرته ورفضته، وتبرأت مني؟

(طالب):ـ من الـطبيعي أننا سنختلف في الرفض والقبول، غير أني متأكد من أن اختلافنا سوف لا يكون فيما يفرق بيننا في العقيدة

(همّام):ـ من أين لك اليقين ولم تمحصني، فلا تعرفني؟

(طالب):ـ الـحقيقـة أني أحببـتُ أن أكون عـلى يقـين فتـصوّرتُني كذلك... ، ويا ليتني كنتُ!

(همّام):ـ فكيف تتولاني وأنت تحتمل أن يكون طريقانا مختلفين؟

× × × × × × × × × × ×

(طالب):ـ ... ألا يعني هذا استحالة حصول الأخوّة الإيمانية بين غير المعصومين، حيث لا يمكن افتراض شخصين متشابهين

تـماما في المعرفة والإيـمان، وإن تشـابهـا في حـال فلا اطمئنـان بأن يستـمرّا كـذلك في المستقبل، فإن المعرفة نامية ومتجددة...

أريد أن أقول: ما دام كل مؤمن يعلم إجمالا أن ما يعرفه هو يختلف عما يعرفه المؤمنون الآخرون، فهو يحتمل إذَن أن يكونوا على خلافه في العقيدة والإيـمان، فالمفروض إذَن أن لا يتحقق في نفسه الولاء تـجاههم حسب ما زعمتَ!

(همّام):ـ فما هو الحلّ إذَن؟ هل الحل هو أن تُلغى المعرفة التي إنـما يتفاوت المؤمنون فيها، ولا يُسمح بتأثيرها على الإيمان، بأن يحدد الإيمان بأمور معيّنة وثابتة ومكشوفة كعدد من كلمات للتلفظ، وأعمال ظاهرية للمارسة، كما هو الآن؟ أم ماذا؟

(طالب):ـ لا أظن هذا صحيحا فإن المعرفة شرط ضروري للإيمان، بل لا يمكن الإيمان بلا معرفة، فهل يمكن أن يكون الحل المطلوب لهـذه المشكلة هو أن يحدد الإيـمان بنمط خاص من الـمعرفة مثلا، أو حدود معينة منها؟ ... ، لا، ليس هذا حلاًّ صالـحا، إذ أن المعرفة تأبى التحديد الفوقي... فإني أعترف أني لا أعرف الحل المطلوب... ، ولعلك كنت تعرفه أنت، وأردتَ أن تذكره فقاطعتك، أليس كذلك؟

(همّام):ـ أحسنت جدًّا وأبدعتَ بقولك: « أن المعرفة تأبى التحديد الفوقي... » ...

آه! بدأنا نتشتت... فإني أجد نفسي مضطرًّا لغلق هذا الباب مكتفيا بإشارة مختصرة جدا، وهي إن الذي يضرّ بالولاء هو الاختلاف في أصل المعرفة، لا الاختلاف في درجتها، فقد يعرف (ب) ـ مثلا ـ ويعتقد أن جهة معيّنة هي الطريق وإن كان لا يعرف كثيرا من تفاصيلها وعقباتها أوطريقة التعامل معها... ، في حين أنه يرى (ج) عالـما بهذا وذاك من الـخصائص والتفاصيل... ، فهذا الاختلاف ليس مما يفرّق بينه وبين (ج)، بل يجعله أشدّ تعلقا بـ(ج) وولاءً له، وهذه الحقيقة المعروفة في تعامل النفوس هي أهمّ باب ينفذ منه طلاب العلوّ في الدنيا إلى نفوس الذين لا يعقلون فيستضعفونهم! ... بشرح مرير مؤلم للقلب لا مجال له الآن، وإن كان ضروريا جدًّا للمعرفة.....

وعلى أيّ حال فلأن هذا الباب بمقدار ما هو مهمّ فهو واسع يتطلب كثيرا من الجهد والوقت فإني أغلقه الآن راجعا إلى المسار الذي كنا نسلكه، فأقول:

إني أرى أن الذي تحسّ به تجاهي إنما هو حبّ متعارف وإن كان من نوع خاص كما ذكرتَ، وليس الولاء الإيماني الصالح، وقد يعني التهيّؤ للولاية كذلك، فإن الولاية القائمة بين مؤمنَين صالحين، لا تكاد تحصل بهذه الكيفية، وإنما وفق نظام خاص أشير إليه الآن إن شاء اللّه:

مثلا لو أن (زيدا) كان عالـما بوجه اللّه مؤمنًـا به متوليا له، فرأى أن (عَمْرًا) متولٍّ لنفس الوجه بمعرفة، تعلقت به نفسه وتولّته، فلا يتولاه زيد المتدين بدين، إلا بعـد أن يتصور عَمْرًا ذا خصلتين، وهمـا: كونه عالـما بنفس الدين، وكونه مؤمنا بـما يعلم، وكلما كان تصوره بوجودهما في عمرو أقوى كان توليه له أقوى وذُلّه الإيماني له أشدّ... ، إلى أن يتدرج ذلك التـصور فيصل مرحـلة يطـمئن فيهـا زيد بأن عمرًا سوف لا يضل الطريق سواءً أعن جهل أم هوًى...

ويتدرج هـذا الاعتقـاد كـذلك ويتعمق إلى أن يصل إلى ما يعتقـده الـمؤمن في النبي صلّى اللّه عليه وآله والإمام الـمعصوم عليه السلام من العصمة المطلقة، فيجدهما أولى به من نفسه، ولا يجدهما كذلك إلاّ أن يجد فيهما نفسه كلها... ، وهنالك كانا كل همّه: إن فكّر فكّرفيهما، وإن قاتل قاتل في سبيلهمـا، وإن ذكر أحـدا ذكرهمـا، وإن دعا لنفسه بدأ بالدعاء لهما، بل جعل لهما كل دعائه، كما في الكافي (٢/ ٤٩١) عن أبي عبد اللّه عليه السلام:« أن رجلا أتى النبي صلّى اللّه عليه وآله فقال: يا رسول اللّه إني أجعـل لك ثلث صـلواتي، لا، بل أجـعل لك نصـف صلواتي، لا، بل أجعل كلها لك... »

وبالـعكس ـ أي بعكس الحركة النفسية الـمنتجة للولاء، والتي قد أشرتُ إليه آنفًا ـ كلمـا ضعف احتمال زيد لوجود الخصلتين

في عمرو كان توليه له ضعيفا، واعتماده عليه حذرا...

وكمـا أن تولّي (زيد) لعمرو (في الـمثال) يتـأثر بدرجة علم عمرو وإيمانه بالطريق في نظر (زيد)، كذلك يتـأثر بدرجة إيمان (زيد) وتمسّكه به، فلوكان إيـمانه وتمسكه بالـطريق ضعيفـا كان تولّيه لعمرو ضعيفـا، وكذلك العكس... ، وأما معرفة (زيد) بالـطريق فلا تأثير لها على ولائه المفروض تجاه عمرو إلا بمقدار ما تؤثر في إيمانه بالطريق، وبما أننا افترضنا زيدا مؤمنا صالحا، فاعتبرنا بذلك إيمانه بالطريق ناتجا عن العـلم، لا التقليد وما شابهه من مسالك التعصّب، فبذلك كان لمعرفته تأثير غير مباشر على ولائه المفروض تجاه عمرو....

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ كأني قرأت شيئا من هـذا القبيل في مقـال بصـدد بعض الولايات الشرعية...

(همّام):ـ لو صحّ هـذا الذي زعمتَ وكنتَ قرأتَ من قبل ما يشبه هـذا الذي تناولنـاه الآن فعلا فإني إذَن أغتبطك، حيث نلتَ شيئا طالـما تمنّيتُه ولم أنله، غير أني أظنك مخطئا في التشبيه، وأن الذي كنتَ قرأته إنـما كان مقالا حول الموضوع في جانبه الـفقهي البحت، أو ما كان قد تناول أيضا ـ بسبب أو آخر، وبصورة أو

أخرى ـ ضرورته الاجتماعية أو السياسية مثلا، والذي أنويه أنا ليس إلا محـاولة لوصف الولاية كمفهوم يؤشر إلى واقع موضوعي تـمارسه النفوس عامّة، وسعيا لاكتشاف ما لها من أسبـاب وآثار واقـعية فعـلية، ومن ثَمَّ التفريق بين مستقيمهـا وزائغـها على ضوء القرآن والسنة والفطرة، وهذا هو المنطلق الذي أنطلق منه في تعاملي مع جميع المفاهيم العقائدية بشرح لا مجال له الآن...

فالولاية بهذه الصورة التي أردتُ الإشارة إليها هنا قد تمس ما أشرت إليه من الولايات وتلتقي بها، ولكن لا من الجهة المتعارفة لتناولها... ، ألا ترى فرقا بين الأمرين؟

(طالب):ـ أجـل، وإني أتعـجب الآن من غفـلتي عن الـفرق! فإني أعتـذر إليك... لا، بل إني راضٍ عن ملاحظتي النـاتجة عن غفلتي التي جعلتك تتكلم بـما أثار في ذهني نكتـة أتوقع أن تكون ذات تأثير عظيم في تفكيري بعد استيضاحي لمعالمها واستيعابي لها إن شاء اللّه تعالى، إني أقصـد ما أشرتَ إليه من أن طريقتك في البحث العقـائدي هي الوصف بدل الأسلوب الـمتعارف في البحوث العقـائدية، وإني متلهف للفرصة التي تستطيع فيها شرحها لي

فحمدًا للّه على ما أنعم عليَّ بالتعرّف عليك، وإني أرجو أن يجازي اللّه عني ثابتا خيرًا بشفـاعته لي إليك، وأرجو أن تتمّ الآن ما أردتَ قوله قبل أن أقاطعك...

(همّام):ـ أحسنت مرة أخرى بدقّتـك الرائعـة وإخلاصك، وبارك اللّه في فهمك وذكائك، وعلى أيّ حال فإن ما قد أشرتُ إليه من النظام الذي يحصل الولاء وِفقَه لا يختـص بالولاء الإيـماني الـصالح فقط، بل يعمّ الولاء العقـائدي مطلقـا، فأيّ شخصين اشتركا في عقيـدة لابدّ وأن يحصل بينهما ولاء، صالحة كانت عقيدتهما أم فاسدة...

(طالب):ـ وددتُ أن لا تعبّر عن الذي بين أصحاب العقائد الفاسدة بالولاء حفاظا على قدسيته، وعلى أيّ حال فإني لا أتوقع أن يصل الذي بينهم إلى قوة الولاية الموجودة بين المؤمن والإمام المعصوم

(همّام):ـ قد سمى القرآن الكريم الرابطة القائمة بين الكفار بالولاية في عدة آيات، منها الآية ٧٣ من سورة الأنفال، قال اللّه تعالى: (وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) ثم وإني أتعـجب من أنك لا تتوقع أن يصل ولاء الكافر إلى مستوى ولاء المؤمن تـجاه إمامه، فما الذي جعلك تغفل وتتغاضى عما هو مشهود ومنتشر من مظاهر لأعلى درجـات الولاء بين الكفار وأئمتـهم؟! فهل تعصّبتَ، أم تأثّرت بالمقـالات التي تتحـدث عن ظاهرة (الشهادة) في الإسلام لا كموعظة وذكرى، وإنما بطريقة توحي بكونها دليلا على صدق الدين الذي كان قد أنتجها؟! ...

إن الـفرق بين الولاء الإيـماني الصـالح وغيره ليس في شـدّته، ولا في النظام الذي يتحقق وِفْقَه، وإنـما في الـعقيدة التي تنتجه، فإن كانت حاصلة عن تعقل وعلم، كانت عقيدة صالحة فأنتجت ولاءً صالحا، وإن كانت ناتجة عن تعصّب كانت فاسدة فأنتجت ولاءً ضالاّ

ومن الملاحظ المفهوم أن الولاء الناتج عن عقيدة ضالة متعصبة يكون أسـهل حصولا وأوسع انتشـارا من الولاء النـاتج عن العقيـدة المبنية على العـلم والبصيرة، وفي الـمقارنة بين أصحـاب كل من أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية شاهد كاف على ذلك...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ هل لك أن تـحدثني عن كيفية تكوّن العقيدة الصالـحة المنتجة للولاء الصالح؟ ثم وهل سبب فساد العقيدة هو التعصب؟ ...

(همّام):ـ ماذا تقول؟ هل أنت جادّ في اقتراحك بأن نترك الحديث عن الولاية النـاتجة عن المعرفة، وننتقل إلى موضوع آخر قد جرى ذكره في الحديث استطرادًا؟! إن هذا يشعرني بالقلق ويكاد أن يجعلني أشك في نفع الحوار! ... ، وأرجو أن أكون موسوسا

(طالب):ـ أرجو أن لا تشك، وأن تعتبرني كالـذي شفي من عمى طويل، فإنه يريد أن يبصر جميع الأشيـاء مرّة واحدة، خاصة

وإني أجد موضوع كيفية تكوّن العقيدة شيئا مهمًّا لي...

(همّام):ـ على أيّ حال فقد أشرتُ إلى شيء من كيفية تكوّن العقيدة طيّ هذا الحوار وما سبقه، وأما الحديث عنها بتركيز أكثر فهو بحاجة إلى غير هذا المجال، وأما الحديث المفصل المستوعب عنها فهو ليس ميسورا لي أبدًا، لا بسبب ضعفي الشخصي فقط، بل مضافا إليه لأنه يأبى الاحتواء في نفسه، بشرح لا مجال له الآن

وأما التعصّب فأرى أنه لم يتسرّب إلى أصول عقيدة إلاّ وأفسدها، كما ولا ضلال إلا به...

(طالب):ـ إنك تتكلم ألغازًا كما قال لك الأخ المفتقَد عقيل مرّة، وعلى أيّ حال فليس أمامي إلا أن أفكّر فيها، ثم سأرجع إليك لتشرحها لي فنناقشها إن شاء اللّه....

(همّام):ـ ..هل تعبتَ، أم ترغب في أن أرجع إلى الـحُبّ الإيماني الصالح فأوضحه لك أكثر؟

(طالب):ـ أنا كلّي رغبة وسمعٌ واهتمامٌ، فهيا وهيا!

× × × × × × × × × ×

(همّام):ـ فإني آتي هذه المسألة المهمّة من باب آخر، وبما أنه لابدّ لي من أن أمرّ بين حين وحين على مسائل كنت قد ذكرتها

هنا وهنـاك، فالـمأمول أن لا تـجده تكرارًا مملاًّ، لأن هذا مما لا مناص منه في البحث الذي يستـهدف المعرفة... فأقول: لقد قلتَ للأخ عقيل: إنك تحبه، أليس كذلك؟

(طالب):ـ أجل، لقد قلت ذلك، وإني أحبّه فعلا...

(همّام):ـ أتستطيع أن تصف لي حبك له بأن تذكر سببه؟

(طالب):ـ لقد وجدته عالما بالدين فأحببته، ولكني أحبك أكثر...

(همّام):ـ دعنـا عني، ولنـحلّل حبّك للأخ عقيل، فهل أحببتَه كما أحببتَ عالما بمسائل فقهية كثيرة، أو حافظا للقرآن الكريم، أو للأحاديث مثلا، أو من له إلمام كبير بتاريخ حياة النبي والأئمة عليهم السلام؟

(طالب):ـ أنا وجدت الأخ عقيلا مختلفا في علمه عمّن صادفته في حياتي، لا فقط في عمق علمه بل في نوعية علمه أيضا حيث وجدت أن أفكاره تدخل القلب وتزيد الإنسان فهما وعلما وإيمانا...

(همّام):ـ ذلك صحيح، وقد كنتُ أشرتُ إليه قبل قليل، ولكن ألم تـجد للأخ عقيل عقيـدة مضـافا إلى ما لـديه من أفكار ذات خصوصية معيّنة؟

(طالب):ـ من الطبيعي أنه يؤمن بالأفكار التي يحملها...

(همّام):ـ فهل أحببتَه أنت بسبب أفكاره التي تدخل القلب وإلخ، أم لإيمانه بها؟

(طالب):ـ لقد أحببتُه بسبب الأمرين معـا، فإني لو وجدتُه مؤمنا من دون فكر، أوحاملا فكرا من دون الاعتقاد به، لـم أحبّه كما الآن...

(همّام):ـ بماذا يؤمن الأخ عقيل في نظرك؟

(طالب):ـ أظنني قد أجبتُ عليه آنفًـا حين قلتُ: إنه يؤمن بالأفكار التي يحملها، أليس كذلك؟

(همّام):ـ أتراه يعتقـد أفكاره الدينية التي يحملها، أم أنه يعتقد دينا تجسّده أفكاره؟ ...

(طالب):ـ أنا لا أرى فرقا بين العبارتين، فهلاّ بيّنتَ الفرق الذي في بالك!

(همّام):ـ لو أن الأخ عقيلا كان يعتقـد أفكاره الـدينية، فإني أراك قد عرفتَ عقيـدته بـمقدار مـا كنت قـد اطلعتَ على أفـكاره في ذلك المجلس، وبـما أنك أيضـا اعتقدتَ تلك الأفكار، فإذن صح لك أن تحبه، وأمـا لو أنه يعتقـد ما تؤشر إليـه أفكاره فلا أظنك قـد عرفتَ مـا يعتقـده بمجرد ما اطلعت على أفكاره الـمتجزّئة

التي قد طرحها آنذاك، فكيف تسنى لك أن تحبّه لعقيدته من دون أن تعرفها؟! ...

(طالب):ـ أراني محتاجا إلى توضيح أكثر...

(همّام):ـ إن معظم ما كان قد عرضه الأخ عقيل هنـالك إنـما كان مجرد معلومات وأفكار دينية غير منتظمة، ولم يكن أي منها يدلّك على ما يعتقده، فإن الذي يجسّد عقيدة المرء هو طريقته لتنظيم المعلومات في اتـجاه أفكار معيّنة، ثم صياغته للأفكار صياغة تؤشر إلى ما يعتقده ويدعو إليه، ولم يكن الأخ عقيل قـد فعل ذلك في ذكره للمعـلومات وطرحه للأفكار، ألم تلحظه أنت؟

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ ألم يكن عليك أن تجيب ـ قبل هذا ـ على السؤال التالي وهو ما المانع من أن يعتقد المرء أفكاره ويؤمن بها ما دامت صحيحة؟

(همّام):ـ نعم، لقد ذهلتُ عنه، وعلى أي حال فإن الـمانع لـذلك هو أن أفكار الـمؤمن ليست منفصلة عن بعضهـا ليستـطيع الإيـمان بهـا كذلك، وإني أحاول شرحها لك فيما يلي:

كنتُ قد أشرتُ في بداية هذا الحوار أن ما يفكّر ويجهّز الفكر إنـما هو ذهن الإنسان... وذكرتُ آنذاك أن الذهن إنما يخضع

لأوامر النفس في اتــجاه التفكير ومساره، فإن النفس هي التي تقود الذهن إلى الـجهة التي تنزع إليها، وتطلب منه أن يجهّز لها ما تحتاجه... ، ومن جانب آخر فقد كنتُ ذكرتُ أيضا ـ وفي بدايات الحوار السابق ـ : أن للنفس نظاما خاصًّا في تلقي الأفكار والمفاهيم والاعتقاد بها، وهو أنهـا تضمّ الأفكار التي تتلقاها إلى بعضها وتخلطها، وتتغذى وتنمو بحصيلة جميعها... ، أَتَذْكُر هذا؟

(طالب):ـ أجل، إني أذكره، فاستمرّ...

(همّام):ـ بنـاء على ذلك فإن الذي في النفس ليس أفكارا منفصـلة عن بعضها، وإنـما خليط منها، بل إن الموجود فيها ليس إلا حصيلة تلك الأفكار ونتيجتها، كنتيجة ما يتغذى به بدن الإنسان المتمثلة في نموّه...

وأما ما هو موجود في الـذهن من الأفـكار قبل انتقـالـها إلى النفس لتـذوب فيهـا، فهي وإن كانت منفصلة، ولكنها ليست حالئذٍ مما يُعتقد، فإن ما يقوم به الذهن ليس هو الاعتقاد، وإنما مجرد التشخيص الـمحايد لصواب فكرة عن خطئهـا وتقييمها وِفْقَ مقاييس موضوعية منطقية معينة كما قد يفعله الكومبيوتر مثلا

وأما في ما يقوم به ذهن الـمؤمن من اختيار الـفكر الـصالح وتجهيزه لتمريره إلى النفس، فهو كذلك لا يعتقده، وإنـما يعتبره

صالـحا ومناسبا لتعتقده النفس وحسب، بل وإن ذهن المؤمن لا يجهّز الأفكار للنفس إلا وقد ربط بعضهـا ببعـض، فلا يمكنه حالئـذٍ حتى مجرّد تقييم كل فكرة بمعزل عن الأفكار الأخرى...

هذا، وإني أرى أن ما ذكرتُه هنـا كغيره من أعمـال الذهن والنفس قابل للرصد والتأكد الشخصي، فلو كان الشـخص قد فعل ذلك فهو، وإلا فإنه سوف لا يرى هـذا إلا مجرّد ادّعـاء، وأظنني كنت قد أشرتُ إلى هذا فيما سبق، أتذكر ذلك؟

(طالب):ـ أجل، إني أذكره، وكنت قد وافقتك على ذلك، وإني أجد هـذا الذي ذكرتَه الآن صحيحا برصدي لنفسي، فلأنتقل الآن إلى السؤال التالي: لِم لم ينظم الأخ عقيل أفكاره بحيث تؤشر إلى عقيدته، فيعرضها كذلك؟

(همّام):ـ لأنـه لم يكن يعرفك فلم يكن يستـطيع أن يدعوك إلى ما كان يعتقـده من حق... ، ألم ترَ أنه لم يستـطع الاشتراك في الـحوار، وإنـما كان يستجيب لنا فيما كنا نطلبه منه فقط، كما يفعـله الكومبيوتر، وهذا كان أحد الأسباب التي جعلَتْه يتصور أن الحوار كان ذهنيا...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ ألا يحـق للمؤمن أن يعرض عقيـدته إلا على من

يدعوه إليها فقط؟! ثم وهل يشترط في دعوة امرئ إلى حق أن يعرفه؟!

(همّام):ـ أرى أن أهمل هـذا السؤال رغم كونه مهمًّا جدًّا، وذلك خوفا من التشتت والـضياع و... ، ولأرجع إلى مـا قصـدتُه وهو أن مـا تشـعر به تجاه الأخ عقيل ليس ذلك الحب الإيـماني الخاص الذي يكون بين المؤمنـين، والذي هو من أعظم شـعب الإيـمان كمـا في الكافي (٢/ ١٢٥) وتترتب عليه تلك الحقوق العظام المذكورة في الروايات، كما في باب حق المؤمن المذكور في الكافي أيضـا، وأما هو من جانبه، فلا أظنه يشعر تجاهك بأيّ حب، كما ونفسي أيضـا لم تستطع أن تحبّك بعدُ وإن بدأت بالتهيّؤ له

× × × × × × × × × × ×

(طالب):ـ سبحان اللّه! ما أغباني! لقد اعتبرتُ بعض كلامك عني دليلا على حبك لي!

(همّام):ـ أجل، إني ـ كما قلت آنفا ـ قد وجدتُ فيك فهما جيّدًا واهتمـاما كبيرا بالـفكر، فارتحت لك وأنست بك، بل وسُعدتُ، ولكن رغم ذلك بقيت نفسي مترقبة حذرة تجاهك، ولم تنفتح عليك بعدُ، لأن تـجاربي قد أثبتت لي أنه كلما كان المرء أكثر ذكاء كانت أفكاره أكثر عرضة لخطر (الذهنيـة)، والأفـكار الـدينية تكون أضرّ شيء إذا تحوّلت إلى ذهنية...

ومهما كان من أمر فإني لا أظنك تتولّى الأخ عقيلا ـ بعدُ ـ لتجد من حقه عليك ـ مثلا ـ « أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره » مع أمور أخرى مذكورة في روايـة الكافي (٢/ ١٦٩) عن الإمام الصادق عليه السلام، وغيرها من الروايات... ، ألا تجد في نفسك هذا؟

(طالب):ـ لقد أخطأتَ هنـا، فإني معترف بالـحقوق التي تضمنتهـا تلك الروايات، وهي واجبة كمـا في صريح بعضها، وما كنت أتوقع أن يتهمني أحد بشيء كهذا!

(همّام):ـ إنـما أشرت إلى الروايات لا للاستنـاد، بل للاستـشهـاد والتوضيح، ولم أتصوّر أن ذكرهـا سيشوش الـحديث في نفسك... ، ولإزالـة هـذا التشويش الـحاصل أقول: أراك مخطئـا في فهم الروايات المشار إليها حيث تصوّرتَ أن الحقوق المذكورة فيهـا واجبة وجوبا فقهيا كوجوب الصلاة والصيـام، في حين أنها ليست كذلك، وإلا لأفتى بها الفقهاء، فلم يكفك حينئذ أن تعترف به فقط، بل كان عليك أن تعمل به حرفيا وتطبقه بحذافيره كأيّ واجب من الواجبات الفقهية المختلفة...

(طالب):ـ أعتذر من مقاطعتك لأقول: أنا لا أكتفي بمجرد الاعتراف بتلك الـحقوق، وإنـما أسعى إلى العمل بهـا أيضـا، وليس

على المرء إلا السعي حتى في مورد الواجبات الفقهية الـمحددة كالصلاة مثلا، أليس كذلك؟

(همّام):ـ يبـدو أن الخلط الـحاصل أشـدّ مما تصورتُ، وأخاف أن يخرج علاجه الـحديث عن طوره، ومع ذلك فلابدّ من رتق هذا الفتق الـحاصل فأسألك: أليس سعيك للواجب الفقهي كالصلاة مثلا سيستتبع حصولها في الخارج ـ عادة ـ بجميع ما لها من حدود واجبة، في حين أن سعيك للحقوق المذكورة لا يمكن أن يحقق إلا شيئا منها، والمفروض أن الواجب ليس شيء منهـا بل كلها؟ وهـذا يدل على أن تلك الحقوق ليست واجبة كالواجبات الفقهية

إن وجوب تلك الـحقوق يعني أن المؤمن يجـد ضرورتهـا في نفسه فيـنعكس ذلك في سعيه تـجاه إخوانه كـعلائم وثمـار لإيـمانه، فمن لـم يجدهـا تـجاه شخص معين فهو لا يشـاركه في ما يؤمن به، وكلما كان إيمان المؤمن بأمر أشدّ كان إحساسه بحقوق المؤمنين الذين يشاركونه في الإيمان أشـدّ، كما في الكافي (٢/ ١٢٧) عن الإمام الصادق عليه السلام: « ما التقى مؤمنان قطّ إلا كان أفضلهما أشدّهمـا حبًّا لأخيه »، والـحُبّ أصل شجرة الحقوق الإيمانية كلها كما يدل عليه ما في الكافي (٢/ ٢٠٢) عن الإمـام الصادق عليه السـلام أنه قـال: « ... أمـا إنه يحقّ عليـك أن تحبّ من يحب اللّه، أما واللّه لا تنفع منهم أحدًا حتّى تحبّه... »...

أرجو أن يكفي هذا المقدار من الكلام في علاج الخبط، ما رأيك؟

(طالب):ـ إنه وإن أثار بعض التساؤلات في نفسي، لكنه عالج المشكلة فعلا، بل ونفعني كثيرا بأن فتح لي أبوابا جديدة للعلم، وجعلني أكثر حبًّا وشكرا لك...

× × × × × × × × × × ×

(همّام):ـ فلأكرّر إذَن سؤالي، وهو: ألا تجد أنت من نفسك أنها لا تتولّى الأخ عقيلا بعدُ؟

(طالب):ـ الآن وبعد أن عرفت شيئا من الولاية أرى أن ما كنت قد شعرتُ به في الجلسة السابقة تجاه الأخ عقيل لم يكن تولّيًا، وإنما كان حبًّا من نوع خاص، وأما الآن فأجده قد زاد رسوخا واشتدادًا في نفسي، وأرجو أن يكون بذلك الولاء الإيماني الصالح المطلوب، أو بدايته

(همّام):ـ قد يكون كذلك، أتحبّ أن أسألك سؤالا يساعدك على تشخيص حبّك للأخ عقيل، ومن ثَمَّ يبلور المعرفة في ذهنك؟

(طالب):ـ أجل، إني أحب ذلك، فهيّا

(همّام):ـ هل تنتظر من الأخ عقيل أن يبادلك الحب فيحبك كما تحبه أنت، ويرى لك من الحق على نفسه كما تراه أنت له من

الحق على نفسك؟ فماذا لو لم يحبك ولم يهتم بك ولم يؤدّ لك حقا من الـحقوق الإيمانية، فهل يؤثر ذلك على اهتمامك به؟

(**طالب**):ـ أجل، إني أنتـظر منه أن يحبني من جانبه، وأظن أن عدم اهتمامه بي سيؤثر على موقفي منه، أليس هذا طبيعيا؟

(**همّام**):ـ هذا يشير إلى أنك لم تصل بعدُ لتتولى الأخ عقيلا، فإنك لو كنت قد تولّيته لما انتظرت منه أن يعـاملك بمثل ما يفترض أن تعامله به أنت من التنسيق والاتبـاع والاهتمـام، وذلك لكونه أكثر علما بالـطريق الذي يفترض أن كليكما تؤمنان به، فلا يصح له (بل لا يكون) أن ينسق معك ويتبعك إلا أن يعتقد بأنك أكثر علما منه...

(**طالب**):ـ أراك غير واقعي في هـذا الـكلام، فإني لا أكاد أتصور إنسانا لا يتأثر باهتمام من يحبّه وإن كان حبّه خالصا في اللّه

(**همّام**):ـ إني أوافقك على أن التـأثر بالاهتمام طبيعي لا يكاد يخلو منه أحد من النـاس وإن اختـلفوا في درجته، غير أنه ليس مما ينافي التولّي الإيـماني الـصالح، فقـد يتولى المرء إنسـانا وهو متـأذّ منه بسبب شـهواني أو عاطفي... ، وهـذا هو الذي يتوقع أن يحصل ـ بدرجة أو أخرى ـ لأي مؤمن

ومهما كان من أمر فإن وجدت نفسك أحبت الأخ عقيلا وارتبطت به كمـا قـد بيّنتُ لك، ولم يؤثر على اتبـاعك له إن وجدتَه من جـانبه

لا يعـاملك بالمثل، ولـم تتوقع منه ذلك... فهنالك كان حبك له حبًّا إيـمانيا اسمه الولاية... ، ولا أظنك تجدها كذلك إلى الآن، وليس ذلك إلا أمرًا طبيعيا ما دمتَ لا تعرف إلى الآن الطريق الذي يسلكه الأخ عقيل

وأظن وأرجو أن لا يجعلك هذا الكلام لتتهمني بأني أعظّم صاحبي عقيلا وأدعو إليه، فإن ما قلتُه لم يكن إلا محـاولة وصف لظاهرة الولاء الديني وفق حركتهـا الـطبيعية، وما ذكرتُه من أمثـلة إنـما كان للتبسيط والتوضيح، وإن لم يزل غامضا معقدا رغم إرادتي!

وأخيرا فإني أظنك تعلم أيضـا أن هـذا الذي ذكرتُ ليس إلا مجرد إشارة سريعة إلى شعبة من شُعب الولاية الكثيرة، وأن الحديث الشـامل يتطلب مجالا آخر، بل لا يتوفر لي أبدا، فإني كلمـا تدبرتها انكشف لي شيء جديد، بل انفتحت لي أبواب جديدة...

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ كأنك تريد أن تنهي الحديث، ولكن حديثك قد رغّبني في الولاية والحبّ الإيماني، فهلا ذكرت لي كيفية الحصول على ذلك، فإني إليه لمشتاق

(همّام):ـ إن الحب الإيماني الصـالح بالصورة التي كنتُ قد أشرتُ إليهـا طيَّ الـحديث ليس إلا ثمرة لإيـمانٍ ناتج عن معرفة

صالـحة، فبابه الوحيد هو المعرفة المنتجة للإيـمان، فعليك بهـا، ولكن حذار أن تطلب المعرفة للوصول إلى الحب الـمذكور أو أي شيء آخر فإنهـا إذن ستنغلق عليك، إذ أنها تأبى الانفتاح إلا على من يطلبها لذاتها لا لشيء آخر وإن كان من نتاجها!

فلو كنت قد رغبت في الحبّ الإيـماني فعلمت أن الـطريق إليه هو المعرفة، فطلبتهـا للوصول إليه، فإنها سوف لا تثمره لك، وذلك لأن ما قـد تحصله إذَن سوف لا يكون إلا مجرد صورة كاذبة للمعرفة، والمعرفة الكاذبة لا تثمر الإيمان والحبّ...

وأما لو كنت قد رغبت في الـمعرفة وأحببتهـا لـذاتها، فحينئذ كان تعاملك مع المعرفة تعاملا صحيحا، فستنفتح لك إذَن أبوابها، فتنال منها ما شاء اللّه أن تنال...

(طالب):ـ كيف يمكنني أن أحبّ الـمعرفة لذاتها فقط من دون أن أحب الولاء الذي من ثمـارهـا، في حين أني أهتم به وأرغب فيه، وأن الذي جعلني أشتاق إلى المعرفة بهذه الـدرجة إنما هو حبّي للولاء، حيث علمتُ أنها هي التي تثمر الولاء، فرغبت فيها، أفهِمْتني؟

(همّام):ـ هـل شـوقك إلى الـولاء هو الأسـاس الآن لرغبتـك في المعرفة، وأنك إنما تحبها لا لشيء إلا لكونهـا وسيلة لإنتاج

الولاء فقط، أم أنك أخذتَ تـحبها لنفسهـا بعـد أن كان الولاء هو الذي قد دلّك عليها وعرّفك بها باعتباره ثمرة من ثمارها؟

(طالب):ـ إني أراني أحبّ المعرفة لنفسها الآن، بل أتصور أن قلبي كان متعلقا بالمعرفة وراغبا في العلم من قبل، وإن كنت غافـلا عن ذلك التعلق، فقد كنت أندفع به وأتصرف وِفْقَه، ولم يكن اهتمامي بالتحدث معك إلا مظهرا من مظاهر الرغبة في العـلم الكامنة في نفسي... ، هل هذا التصور صحيح؟

(همّام):ـ لقد أحسنتَ جدًّا في انتباهك إلى هذا الأمر المهم، وأيضا في تمكنك من بيـانه... ، وعلى أيّ حال فإن الأمر كمـا تصوّرتَ، وإن كثيرا من التصرفات التي يقوم بها الإنسان إنـما هي نابعة في أساسها عن نزعات فطرية كامنة في النفس، وليست الـمعرفة إلا ذكر تلك النزعات ومساراتها، وما يهديها وما يضلها...

(طالب):ـ كأنك قد أشرتَ إلى أمر مهمّ جدًّا، وإني راغب في أن توضحه لي، قدر ما يسمح به وضعك ووقتك

(همّام):ـ إني أذكر مثالا واحدا لهذا الأمر الذي هو حقا مهمّ جدًّا، وأظن أن ذلك سيفتـح لك بابا إليه وأنت عاقل فطن بصورة ملفتـة، وقد تأكّـد لي اهتمامك الـمخلص بالدين فبـدأت نفسي تنفتح عليك، وكأن حبك بدأ يظهر في قلبي....

أما الـمثال فهو ما قـاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في موقفه يوم الغدير... فمثلا في كتـاب (الخصال ٦٥) أنه (ص) قال ـ في ما مهّد به لبيان ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ـ :

« ... وإني أشهدكم أني أشهد أن اللّه مولاي وأنا مولى كل مسلم، وأني أولى من الـمؤمنـين بأنفسهم، فهل تقرون لي بذلك وتشهدون لي به؟ فقالوا: نعم نشهد لك بذلك... »

إني أسـألك فأقول: أترى أن المؤمنـين بالنبي صلّى اللّه عليه وآلـه لم يكونوا قبلئـذ يجـدونه مولاهم، ليطلب منهم الإقرار، وهل من المعقول أنهم لم يكونوا يعاملونه كمولى في حياتهم اليومية وهم مؤمنون بنبوته؟

(طالب):ـ من الطبيعي أنهم كانوا يعلمون ويعملون كذلك، والذي قد فعـله النبي صلّى اللّه عليه كان توضيحـا وتأكيـدا للمؤمنين، وإتـمام حجة على الآخرين، فهل ترى غير هذا؟

(همّام):ـ أجل، إني أرى أن الـمؤمنين كانوا يجـدون في نفوسـهم من قبل بأن النبي صلّى اللّه عليه وآلـه مولاهم، بل ولابدّ من أنهم كانوا يـمارسون ذلك في حيـاتهم اليومية، ولـكنهم مع هـذا وذاك لم يكونوا يشهـدون بذلك، أللّهمّ إلا قليـلا منهم، أي أن ما كانوا يمارسونه لم يكن حاضرًا في وعيهم، أي أنهم لم

يكونوا (**يعرفون**) ما كانوا يمارسونه، ولا يجعل المرء على الهدى مجرّد ممارسته لـحقٍّ من دون أن يعرفه ويشـهد بذلك، كمـا في رواية الكافي (٢/ ٣٨) عن جميل بن درّاج حيث قـال: سألتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن الإيـمان، فقال: « شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ». قلتُ: أليس هذا عمل؟ قال: « بَلَى » . قلتُ: فالعمل من الإيمان؟ قال: « لاَ يَثْبُتُ لَهُ الإِيْمَانُ إِلاَّ بِالْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ مِنْهُ » ...

(طالب):ـ وددتُ أن تذكر لي دليلا على أن هـذا الذي ذكرته هو المقصود بالرواية؟

(همّام):ـ إني مطمئن إلى سلامة الـفهم المذكور، ولكني لا أستطيع إثباته لك بدليل محـدد... ، وعلى أيّ حال فإني لم أذكر النص لأستنـد إليه وأؤسس عليه الفكرة المذكورة، وإنما أردتُ أن أوضحها من خلاله، فهو بذلك لا يتطلب إثباتا....

وأظن أننا قد توسعنا في الحوار كثيرًا، فلابدّ من إيقافه، أليس كذلك؟

× × × × × × × × × ×

(طالب):ـ إضاعة الفرصة غصة، لكن يبـدو أنك قد تعبت، فإنا للّه وإنا إليه راجعون

(همّام):ـ ليس الـمانع الرئيس عن الاستمرار في الحوار هو التعب، وإنـما التوسـع الموجب لتـخمة النفس الخطرة، ولـعلّ مما يشير إلى هـذه الـحقيقة الواضحـة مـا في الكافي (١/ ٤٤) أنـه « جـاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام فسأله مسـائل، فأجاب، ثم عاد ليسأل عن مثلهـا، فقال علي ابن الحسين عليهما السلام: مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعـلمون، ولـمّا تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفرا، ولـم يزدد من اللّه إلا بعدًا »

هذا إذا فسّر العمل بالاعتقاد، وليس ذلك ببعيد...

وذكرت الرواية للاستشهـاد بها، لا للاستناد إليها، فلا يضر كونها ضعيفة

(طالب):ـ أنا لا أشـعر بثقل الـحديث على نفسي، فلا تخمة إذَن، أليس كذلك؟

(همّام):ـ أخشى أن يكون سبب ذلك أن ذهنـك أخـذ يتعـامل مع الحوار كسمر فكري، والذهن لا يستوخم الفكر مادام لا يجهّزه للنفس

× × × × × × × × × × ×

(طالب):ـ فهل تحدّد لي موعدًا لتوضح لي بعض المسائل التي كنت قد أشرتَ إليها في هذه الجلسة ولم تشرحها، كالتأثير السيّئ الذي نسبتَه إلى كثرة قراءة المرء للمقـالات الفكرية، وكيفية اشتراك شـخصين في طريق هما يختلفان في درجة معرفته، وما عبّرتَ عنه بطريقة (الوصف) في الـمعرفة، والعلاقة بين التعصب والضلال، ونكات أخرى كثيرة

(همّام):ـ إن ما تناولناه في هـذه الـجلسة كان يكفي ـ بإجماله ـ ليـدلك على الملامح العـامّة للطريق الذي أنا سالـكه، وأنت عاقل فطن مطلع على المسـالك الفكرية، فإن تدبَّرتَ الأمر فألـممتَ بالطريق رغم إبهامه لك بعـدُ، واعتقدتَه بإجماله فبدأتْ نفسك بالتفـاعل معه والتحرّك في اتجاهه ـ وهذا ما أتوقعه ـ فمن الـطبيعي إذَن أن يجـد كل واحد منـا الآخر... ، فلا حاجة إذَن لتحديد موعد خاص للقاء

وأما لو أن ما دار في هذه الـجلسة لم يستـطع أن يجعلك في بداية الـطريق الذي أنا سـالكه فإني إذن أرتاب في أمرك، وأشك في أنك هل تبحث عن طريق للهـدى أم عن أفـكار للتـداول الـذهني فحسب... ، فعلى هذا أيضا لا أرى حاجة إلى موعد آخر، وأرجو وأتوقع أن لا يكون هذا الاحتمال صحيحا... ، فإلى اللقاء أو الفراق! ...

(طالب):ـ أرجو أن لا تهدّدني بالفراق، فإني أحببتُك جدًّا ولا أريد الابتعاد عنك، بل لا أطيقه...

(همّام):ـ أنا لم أهدّدك، وإنما وصفتُ لك نفسي، وكاشفتُك طريقة التعامل معي، وإني أخاف هذا الحبّ الذي تشعربه تجاهي، وأحذّرك منه فقد يجعلك تتكلف التبنّي لـما أعتقِـدُه من دون أن تنتـبه فتخسر بذلك نفسك، وتسبّب لي كثيرا من اللوم والأذى! ألّلهمّ إلا أن يكون حبًّـا في وجه اللّه الذي أنا سالكه فكان بذلك نعمة عظيمة... ، وأرجو أن يكون كذلك

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته...

والحمد للّه رب العالمين

١١/ جمادى الأولى / ١٤١٧

انتقـــاد

١٣/ شعبان/ ١٤١٧

إلى السيد / محمد علي باقري الموقر

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته..

بعد قراءتي لما نشرتموه في كراستكم الإمامة واللباس، جوانب من المعرفة الدينية، ورسائل ومقالات في المعرفة الدينية والاعتقاد: ـ

أ ـ تولّدت عندي أمنية شـديدة كانت موجودة في نفسي وهي أن تكون لـدي الوسيـلة للاتصال بالإمام (عجل اللّه فرجه) لأعرض عليه سـلوكي وأخلاقيـاتي وأعرف منه مـا هو صحيـح وما هو غير صحيـح لأغيّره قبل وفاتي.

ب ـ أرى أن أسلوب الحوار الذي اتبع في الكراستين الأولى والثانية فيه شيء من التصنع مما يشتت الذهن عن صلب الـموضوع الـمطروح للبـحث، فأقترح أن يكون عرضـا متسلسـلا مع بعـض الأمثـلة لتقريب الموضوع للفهم

جـ ـ أن لغة الكراسـات اتسمت بصعوبة العرض فإن كان المقصود منها النفع العـام فإني أراها كتبت بأسلوب صعب وقد يكون مملاًّ ويطرح جانبـا لمن لم يسـتوعبه. ولولا قراءتي لهـا

عدّة مرّات ومعرفتي المسبـقة بمتبنيـاتكم وأسلوبكم لـما فهمتها ولما صبرت على قراءتهـا. فأقترح أن يكون أسـلوبهـا بسيـطا ومفـهوما حتى يمكن أن يقبل على قراءتهـا عدد أكبر من المؤمنين وقد تعمّ الفائدة

د ـ بالنسبة لي شخصيـا فقد بلورت لي بعض الـمفاهيم التي أدعو اللّه سبحانه أن أكون بها على الطريق المستقيم.

وفقكم اللّه. وغفر لنا ولكم

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

× × × × × × × × × ×

التـعـليـق

بســـم اللّه الرحمن الرحـيم

عليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته

أ)ـ لم أفهم مقـصودك بالـضبط من الـفقرة (أ) في رسـالتك، فهل أردت أن تقول: إنك لم تـجد في الـكراسين ما ينفعك فترسخت بذلك عقيدتك السـابقة بأنه لا طريق إلى الـمعرفة غير سؤال الإمام عليه السلام نفسـه، فاشتـدت أمنيـتك لأن تلتـقيه فتعرف به الـصحيح والبـاطل من أخلاقك وسلوكيـاتك؟ أم أنهـا استطـاعت أن تبـلور

الـحق في نفسـك فاشتدت رغبتك للعمل به فشعرت بالحاجة إلى وليّ يأخذ بيدك ويقودك للعمل بما عرفت؟

لو كانت مشـكلة امرئ هي معرفة الـحق من الأسـاس، أي أنـه لا يستـطيع أن يعرف الـحق إلا بأن يبيّنـه له الإمـام عليه السـلام بالتـفصيل وبوضع النقـاط على الحروف، فإني أراه مخطئـا في هذا التوقع بسببين رئيسيـين: الأوّل: أن من كان كـذلك فإني لا أظنـه يستـطيع أن يعرف الإمام عليه السلام نفسه حيث أنه لا يُعرف إلا بالحق، والثـاني: أن معرفة الـحق لا تتمّ لأحد بهـذه الـطريقة، وإني كنت قد أشرت في المقـالات السابقة إلى المسار الذي لابدّ وأن تمرّ المعرفة عبره...

ولو كانت المشكلة هي التطبيق فإني أظن التوقع بالصورة المذكورة في الرسالة غير واقعي حتى ولو أمكن افتراض كونه صحيحا في نفسه، إذ لا يتوقع أن يتكفل الإمام (ع) بيان الـصحيح والـخطأ من سلوكيـات وأخلاقيات كل فرد من الراغبين في الصلاح، وإنـما الذي يُتوقع هو أن يبيّن الإمام القواعد الـعامة التي يستـطيع أن يعرف بهـا الناس بشكل عام السلوك الصالح والـطالح، وهذا متوفّر الآن في القرآن والسنّة وإن كان أكثر الناس لا يكادون يعرفونه الآن، بل وإن كثيرين لا يستطيعون معرفته، فإن الآفاق قد أغامت، والمحجة

قد تنكّرت... فحضور الإمام سيساعد هؤلاء على الـمعرفة، ويسهّلها للذين يستصعبونها، ويعين الذين يعرفون على الاستزادة...

× × × × × × × × × ×

ب)ـ ما تعمـده الـكراس الأوّل والثـاني هو في الأسـاس مسـاعدة القارئ على المعرفة، وبما أن المعرفة هي عبارة عن فهم أصول المسائل بما لها من فروع، وفروعها بما لـها من أصول، فهي لا تـحصل إلا بحركة الفكر الشجرية أي بحركته من الأفكار الفرعية إلى أصول تترابط عندها الفروع وتتغذى منها، ومن الأصول أيضا إلى فروعها... ، ولذلك كان الكراسان يحاولان الإشارة إلى أكبر قدر ممكن من المسائل التي يفترض أنهـا مترابطة على خلاف ما تبـدو في النـظر البـدوي، وذلك لكي ينتبه الـقارئ إليـها فيتـابع كل مسألة صعودًا إلى مسائل متفرعة منها، ونزولاً إلى الأصل الذي تتفرع منه وتلتقي عنـده بمسائل أخرى...

× × × × × × × × × ×

أظنك تصورت (مثـلا) أن صلب الـموضوع المطروح للبحث في الـكراس الأوّل هو (سبب لبس الإمام للثياب الغالية)، فتوقعتَ أن يدور الحديث كله حوله وأن لا أتطرق إلى أيّ أمر آخر غير ما يساهم في تبـيين ذلك الموضوع...، فلما رأيتَني تطرقتُ ـ مثلا ـ

إلى مسـألة النفس وكيفية تعـاملهـا مع الأفـكار وجدتَني تصنّعت التـطرق إلى مسـائل غير مرتبطة بصلب الموضوع المذكور، فرأيتَ أن ذلك مما شتت ذهنك عن التركيز على المسألة الرئيسية...

إن كان هـذا هو الذي قصـدتَه فأنت على صواب في إشكالك لو كنتُ أستهدف بالكراس تجهيز فكرة أو أفكار معيّنة بغية نقـلها إلى ذهن الـقارئ بأوضح صورة، وترسيخهـا فيه بأسهل طريقة... ، وبما أن هـذا النمط من التجهيز لا يحصل إلا بعزل الفكرة (أو مجموعة من الأفكار) الـمراد تجهيزهـا عن بقية الأفكار والـمجموعات، و(إفرادهـا) كوحدة مستـقلة غير مرتبطة بالوحدات الـفكرية الأخرى، فكان علَيَّ أن أسلك نفس الـطريق الـمسلوك في الـمقالات الـفكريـة المقروءة والـمسموعة الشائعة الرائجة بشكل عام

فكلّمـا كانت عمليـة عزل الـفكرة (أو مجـموعـة من الأفـكار) الـمعروضة وفصلهـا عن غيرهـا أتمّ كان العرض أفضل وأصلح وعملية النقل المطلوب أنجح وأسهل

ولكني حيث أرى أن هـذا الأسلوب في التعـامل مع الفكر الـديني يخنق الأفكار ويحوّلهـا إلى جثث ميّتة وأشلاء مبعثرة لا تعين أحدا على هـدى إن لم تصدّه عنه، بشرح ليس مجـاله الآن، فقـد اتخذت مسلكا مختـلفا وهو التركيز على روابط الأفكار وإظهار

تلك الروابط وكشفها بدل أن أخفيها أو ألغيها لتستقل الأفكار عن بعضها فيسهل بذلك تناولها وتداولها

وبـما أنه لابدّ لي من اختيار فكرة (أو أفكار) رئيسية في كل بحث مكتوب أوملفوظ، وبما أني أخاف أن تنفرد تلك الـفكرة الـمختارة من إطارها فتنتقل إلى ذهن القارئ (أو المستمع) متورمة... فأرى أن علَيَّ إذَنْ ذكر إطارها بإلقاء الضوء على ما لها من الارتباط الشجري بالأفكار الأخرى، وبما أن إظهار جميع روابطها مع الأفكار الأخرى غير ممكنة من جهة، ومن جهة أخرى فإني لا أرى التـجهيز حتى في علاقـات الأفكار الدينية وروابطهـا لكونه منـافيا للحركة الـذاتية التي لابدّ منهـا في طلب المعرفة... ، فإني لا أجد مناصا من ذكر بعض المسـائل لألمح من خلالها إلى وجود رابطة بين الفكرة المركز عليها في البحث وبين أفكار أخرى آملا في أن يدعو ذلك الـقارئ (أو المستـمع) إلى البحث عمـا بينـها من رابطة مباشرة أو بواسطة...

أجل، إن هـذا ما أفعـله في أحـاديثي بشـكل عام، مضافا إلى لفت الأنظار إلى وجود الروابط وضرورة اكتشافها، وهذا هو السبب الأهمّ في حصول الظاهرة التي لاحظتَها أنت ولاحظها غيرك خصوصا الذين لم يستمعوا لي، فكمثال قـد أُخبِرت أن شخصـا قد اطلع على الكراس الأوّل مما كتبته فقـال: ما كل هـذا اللف

والدوران والتعقيـد؟! فقد كان يكفي أن يلخص الكاتب الموضوع كله في ورقة، بل في أقل...

وقد يتضح هذا بأن أقول: إني لـما أختار فكرة دينية معيّنة للبحث، فإني لا أستهدفها بذاتها، وإنما لأتخذ منها جسرًا للعبور إلى المعرفة، وإلا لم أهتم بها، فمثلا إني لم أركز في الكراس الأوّل على لباس الإمام عليه السلام إلا لأدعو القارئ إلى فهم القاعدة العامّة للباسه، ولم أكن أدعوه لاستنبـاط تلك الـقاعـدة إلا ليتـعرف على دعوة الإمـام، ولم أكن أهتمّ بمعرفته لدعوة الإمام إلا لتـدلّه على وجه اللّه عزّ وجلّ...

لأن يدل اللبـاس أحـدا إلى دعوة الإمام عليه السلام لابدّ من أمرين متـداخـلـين: أن يركز عـلى اللبـاس لـيعرف أسبـابه وآثاره في الأنفس والآفاق، وأن يكون منتبهـا حذرًا في نفس الوقت لئلا يتورم اللباس في نظره بسبب التركيز عليه فيتحوّل بنفسه إلى هدف رئيسي بدل أن يعامل كمؤشر إلى مسألة أخرى ومعلم من معالم الـطريق إليها... وهي موازنة حسـاسة صعبة قلمـا يفـلح الـمرء في الـحفاظ عليهـا في أي بحث من البحوث النظرية

فلأني أردت مساعدة القارئ في التحرك نحو معرفة دعوة الإمام (ع) انطـلاقا من اللبـاس فكان عليَّ أن أفعل شيئين معـا: أن ألفت

نظره إلى اللباس من جهة، ومن جهة أخرى جعله لا ينكبّ على اللباس باعتباره هدفا بنفسه، فلذلك حاولت أن أجعل ذهنه دائم الحركة وسط مجموعة من مسائل مترابطة بدل شدّه باللباس وحده، كما وأني استهدفت لفت نظره ومن ثم دعوته إلى أن يفعل كذلك مع جميع الأفكار الدينية إن أراد المعرفة

× × × × × × × × × × ×

جـ)ـ أعترف إجمالا بالمشكلة التي كنت قد ذكرتها في الفقرة (ج) من رسالتك وقد ذكّرني بها كثيرون، ولعلّ أظرفهم من كتب لي قائلاً:

«*ألا تعتقد بأن بعض الأحاديث والمقالات أشبه بالطلاسم!*

لما ذا لا تحاولون أن تبسطوا الطرح لحساب الوضوح وإن كان على حساب الإيماء بالقوّة والعمق والعبقرية!. أليس ذلك أنفع.. »

وقد أجبت عليه في حينه بما أكتفي الآن باستنساخه هنا بنصه:

« *... إنك ظننت بي ظنّا حسنا حيث تصوّرتني قويًّا قادرا على تبسيط الحديث وتوضيحه، ولست كذلك مع الأسف...، وكنت قد كتبت قبل أكثر من سنتين في نهاية كُرّاس باسم [التعاطف مع الإمام الحسين (ع)] ما نصه: (وبهذا أختم هذا الحديث الذي طال أكثر مما توقعتُ، وتعقَّدَ في بعض نقاطه*

على خلاف ما أردتُ، فقد أردته سهلا في أسلوبه خفيفا على الذهن... ولكنه (**الضعف**) الذي يحول بيني وبين رغباتي دائما وفي جميع أموري.... ولا حول ولا قوّة إلا باللّه)

أجل، رغم أني أراك مبالغًا كثيرا في تشبيهك لأحاديثي بالطلاسم أعترف بأني ضعيف... ، وإني أعاني من هذا جدًّا، فقد يحصل أن أغيّر صياغة عبارة مرات عديدة، لا لأعقّدها بل لأبسطها، فلا أوفّق فأحذف الفقرة كلها وأنا آسف! ... فلا قوّة ولا عبقرية لأومي إليهما! ..

وأما العمق فليس مما أفخر به ولا أرتاح له، وكما في المثل: « **مكره أخوك لا بطل** » فإن ذلك مما قد اضطرتنا إليه إمامة الضلال الرافضة للّه واليوم الآخر والمتوغلة في أعماق النفوس... ، فلو كانت الإمامة لإمام المتقين لم تكن حاجة لكثير من هذا العمق، فهو مما يذكّرني بالظلم والظالمين، ويشعرني بافتقادي لأئمة الهدى عليهم السلام.....

هذا وقد كتبت في مقال سابق منشور ما يجعل القارئ (أو المستمع) يستصعب المقال الذي يتناول جذور المسائل لتعليم الفكر، لا لتلقينه... ، وإليك مقطع منه بنصّه:

(... ب): وإذا كان (ف) قد تمكّن من اجتياز العقبة السابقة

فتفهم الـفرق بين المقال الجديد والـمقالات الـفكرية الأخرى التي هو كان قد عهدها، فإنه ـ إذَن ـ سيواجه عقبة أخرى في الطريق، وهي صعوبة المقال حيث يتطلب بطبعه كثيرا من الـدقة والـجهد، خصوصا وأن (ف) كان قد تعوّد على قراءة وسمـاع مقـالات سهلة، ولم يتعوّد على التعـامل مع هذا النمط من الأحاديث التي لا يكاد يتم فهمها إلا ببحث مخلص منطوٍ على مشقة كبيرة...)

فهل لديك حلّ عملي لهـذه المشكلة بعـد أن عرفتـها؟ أم تنصحني بترك الحديث بالمرة؟ أرجو أن تكتب لي وتعينني وجزاك اللّه عني خيرا »

وها أنا ألتمس منك العون بأن تقوم بتغيير أسلوب شيء من المقـالات المذكورة وصياغته صياغة سهلة مطـلوبة، ومن ثمّ عرض ذلك علَيَّ... فعسى أن يفتح اللّه لنـا بذلك بابًا لـخير جديد، شريطة أن لا تعتبر هـذا تعهّدًا مني بشيء، لئلا تتأذى إن لـم تجد مني التفاعل المطلوب مثلا...

× × × × × × × × × × ×

د)ـ لو أنك عيّنتَ في رسالتك المفاهيم التي بلورتهـا لك المقالات، وبيّنتَ كيفية استفـادتك منهـا بالـضبط والتـفصيل لكانت رسالتك أكثر نفعا...

وعـلى أي حـال فـإني أشـكرك على أن هيّـأتَ لي فرصـة واقـعية لتوضيح بعض الأمور، وأرجو أن يصلح اللّه أمري وأمرك ويجعل عاقبة أمرنا خيرًا ولا يتوفّـانا إلا مسـلمـين، وأعتـذر من التـأخير في نشر هـذا التعليق، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

هذا وإني أعلن استـعدادي (بل رغبتي) للتحـاور حول ما ذكر في هـذا التعـليق، فأرجو ممن يرغب في ذلك أن يكتب مـا يثير الـمقال في نفسه من تساؤل وانتقاد... فيناولنيه، أو يضعه في الصندوق، فإن رأيت في التـعليق عليه وإعلانه نفعا لرواد المسجد، فسوف أعلق عليه إن شاء اللّه وأعلنه كما فعلت بهذه الرسالة...

محمد علي باقري

عدّل في ذي الحجة ١٤٤٥